طبعـة إلكترونية مجانية خاصة بمنصة سـواري

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

يُمنع منعـًا باتـًا طباعة هذا العمل لغرض التكسـب منه بالبيـع أو الشـراء بـأي صـورة ورقيـًا أو إلكترونيـًا أو التصرف فيه إلا بإذن رسـمي من مركز دلائل

# فتاة الضباب

## أحاديث المرأة... أين الخلل؟


**إعداد:**

**د. أميرة بنت علي الصاعدي** **د. إقبال بنت علي العنزي**

**سميحة بنت عبدالله الحمادي** **جنة بنت إبراهيم الشرماني**

**د. شيخة بنت عبدالله المطوع** **د. سندس بنت عادل العبيد**

**د. نعمات بنت محمد الجعفري** **د. مها بنت منور المطيري**

**د. نورة بنت محمد العجمي** **نورة بنت يحيى الذكير**

**هناء بنت عبدالله المطوع** **د. وفاء بنت راشد الشبرمي**

**هند بنت عبدالإله المشرف**

**تحرير ومراجعة:**

**نورة بنت يحيى الذكير** **د. نورة بنت محمد العجمي**

ح دار وقف دلائل للنشر، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

فتاة الضباب - أحاديث المرأة : أين الخلل ؟
مجموعة من الباحثات
٢٠١ ص ، ١٤× ٢١ سم.
رقم الإيداع بمصر : ٤٩٥١ / ٢٠١٩

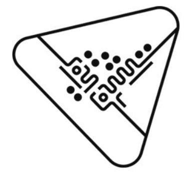
حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

مضمون الكتاب يعبر عن رأي مؤلفه
ولا يعبر بالضرورة عن رأي المركز




Dalailcentre@gmail.com
الرياض – المملكة العربية السعودية
ص ب: ٩٩٧٧٤ الرمز البريدي ١١٦٢٥
Dalailcentre@
+٩٦٦٥٣٩١٥٠٣٤٠



دار تشويق للنشر والتوزيع
مصر - ٢٠١٠٦٨٤٣١٧٧٠+

## تصدير

إن الناظر في القضايا المطروحة دوماً على مختلف الساحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية والحقوقية، ليجد قضايا المرأة حاضرةً فيها بقوة، ومن هنا كان ديننا الحنيف سباقاً إلى إعطائها قدرها الذي تستحق من الأهمية، وسباقاً إلى بيان حقوقها وما لها من مكانتها الخاصة في الإسلام، والتي لم تضاهيها مكانة أخرى من وقتها وإلى اليوم.

ونحن إذ نسير على نفس الدرب من الاهتمام، فكانت هذه السلسلة المتميزة باسم (سلسلة المرأة)...

**وفي هذا الكتاب** نتجول معاً في واحة أدبية فريدة، قدمتها أيادي متخصصات في مختلف أبواب الشريعة، للرد على أشهر الأحاديث التي يستغلها البعض للطعن في مكانة المرأة في الإسلام، حيث يقمن بفك استشكالاتها واحدة تلو الأخرى، ويوضحن ما صاحبها من خلل في فهم المراد منها ومرامي معانيها، كل ذلك بأسلوب منهجيٍ راقي؛ نفخر بتواجده بين مسلماتنا اليوم خاصة الأكاديميات منهن.

**مركز دلائل**

* * *


بسم الله الرحمن الرحيم

## المحتويات



* * *

# تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

أما بعد.

ففي اجتماعٍ – عبر الأثير – بثَّتنا إحدى الأخوات همَّها بسؤالٍ فاجأَها في قاعة المحاضرة، لم يكن السؤال مُفاجِئًا مُعجِزًا، بقدر ما استغربتْ سبب الاعتراض بتلك الطريقة، فجاءتْ للمجموعة تطلب مشورةً بهذا الشأن.

وفي وقتٍ ثانٍ، طالعتْنا أخت أخرى مُعلِّمة، بسؤالٍ صادم من فتاة يعلوها الأدب، في المرحلة المتوسطة! فكتبتْ لنا مفجوعةً: في هذا السنّ، واستشكلتْ هذا الحديث؟!

وفي وقتٍ ثالث، هزَّتْنا (تغريدةٌ) لفتاة في الثانوية.

وفي مناسبةٍ أخرى، عبرَ طرْقِ إحداهُن الباب على مكتبي، تستأذنني أن تطرح سؤالًا عندها لم تستطع إجابتَه، رحَّبتُ بها فجَلستْ قُبالتي، وما إن تحدَّثتْ حتى نابتْ عنها دُموعُها!

وكانت قد سألتْني سؤالًا مُشتجِرًا وسط المحاضرة، ببراءةٍ وصدقٍ شديدين، لكن يبدو أن إجابتي العَجْلى لم تُقنِعها بعد، إضافة إلى تبكيت صاحباتها لها: كيف تسألين هذا السؤال!!

لم يكن بيدي أن أُفصِّل الإجابة، لكن كان بوُسعي أن أقول لها

أمام صاحباتها: من لا يَسأل، لا يفَهم! دعكِ منهن، فعادتْ لها ابتسامتها وثقتها، ثم جاءتني – في مكتبي – تريد استكمال النقاش، إلا أنَّ ألمًا بدا لي –في تقاسيم وجهها– من ورود هذا الاستشكال على خاطرها.

ومواقف أخرى – في قُطرِنا أو في خارجِه – مما بدا لنا في صورة أسئلة، واستشكالات، تطارحْناها سويًا على مُدَدٍ متفاوتة.

كانت نقاشاتنا تلك، في مجموعةٍ علميةٍ تتخذ "**سُنَّتي**" شعارًا لها يُشرف عليها فضيلة شيخنا: **أ. د. خالد بن منصور الدريس**، فكان من توفيق الله له أن اقترح علينا محاولة جمعِ تلك "الأحاديثِ المُشكِلة" ثم مُعالجتها، وتصويب فهمها وفق مراد قائلها ﷺ مُنتظِمةً في سياقات هديه ﷺ، وصولًا إلى جذر المشكلة المؤدية لذلك، المشكلة التي تكاد تكون: نزع الأحاديث من سياقاتها، وضرب النصوص بعضها ببعض، ولو رَدَّ المُستَشْكِلُ مُتشابِه قوله ﷺ إلى مُحكَمِ فعلِه، لانجلى عنه ضبابٌ كثيف، وأشرقتْ أنوارُ الهدى الساطع، والمدى اللاحب رحمةً وسعةً وإعزازًا لنَسْمةِ اللطف في هذا الكون: المرأة!

من بعد ذلك؛ انتدبتْ الأخوات المتخصصّات في السُنَّة – المهتمَّات بنقاء أفكار بنات جنسهنَّ – أنفسهنّ، ليكتُبن من واقع: علمٍ، وخبرة! فكان هذا الكتاب، الذي نُقشت حروفه

بمدادِ القلب قبل القلم، بدفءِ أمٍّ، وقلقِ أستاذٍ مُهتمّ، أملًا في ترشيد فكرةَ، وتنقية خاطرٍ مما لا يحبه الله ورسوله ﷺ، وما كان هذا الخاطر ليتكدَّر لولا "نقصُ العلم" أو "غياب المُوجِّه" وهذه المقالات تُحاول سدَّ هذا النقصِ وذاك الغياب.

وأملنا الذي نراه في أعينِ بناتنا في أعمارهن الذهبية، من الخامسة عشرة حتى انتهاء العشرينات: الحرص على السُنَّة، وردُّ كيدِ كلِّ متربصٍ يَهْرِف بما لا يعرف، حين تتوفر بين أيديهنَّ الحُجةُ الممتلئةُ إشراقًا كالشمس، بلسان بنات جنسهن، اللاتي يفهمنَ طبيعتهنّ، ومُحيطَهنّ.

توزَّع العمل في هذا الكتاب، بين هذه الأسماء إدارةً وتنفيذًا :

**إدارة المشروع:**

أفنان بنت نافع النافع (السعودية).

خضرا بنت سالم البلوي (السعودية).

جنة بنت إبراهيم الشرماني (اليمن)

دلال بنت حمد العنزي (الكويت).

**تنفيذ المشروع:**

١. د. إقبال بنت علي العنزي (الكويت).

٢. د. أميرة بنت علي الصاعدي (السعودية).

٣. جنة بنت إبراهيم الشرماني (اليمن).

٤. سميحة بنت عبدالله الحمادي (اليمن).

٥. د. سندس بنت عادل العبيد (الكويت).

٦. د. شيخة بنت عبدالله المطوع (الكويت).

٧. د. مها بنت منور المطيري (الكويت).

٨. د. نعمات بنت محمد الجعفري (السعودية).

٩. د. نورة بنت محمد العجمي (الكويت).

١٠. نورة بنت يحيى الذكير (السعودية).

١١. د. وفاء بنت راشد الشبرمي (السعودية)

١٢. هناء بنت عبدالله المطوع (الكويت).

١٣. هند بنت عبدالإله المشرف (السعودية).

ولا ندَّعي أننا أحطْنا بكلِّ ما يُشكِل في السُنَّة النبوية، ونطمعُ منكِ قارئتنا الكريمة، تزويدَنا بما ترين الحاجةَ لبيانِه في إصدارٍ قادم إن يسَّر الله، وبمُلاحظاتك على ما ستقرئينه بين دفَّتي هذا الكتاب، على البريد الإلكتروني: alsona1432@gmail.com

جعلَنَا الله وإياكِ شُركاءَ في الأجر!

أخواتُكِ في مجموعةِ **سُنَّتي**

٢٦-٥-١٤٤٠هـ

# لولا حواء!

د. أميرة بنت علي الصاعدي[١]

في ليلةٍ شاتية، على أطراف المدينةِ الوادِعة التي تغرّبنا فيها، وعمّا قريبٍ نعودُ لأرض الوطن، كنتُ أجلس بجوار نافذة الدار، أرنو ببصري إليها حينًا بعد حين، في انتظار وصول زوجي بعد دوامه الطويل، في أثناء ذلك، لمحتُ زوجَين يسيران الهُوينى، لا أدري إن كانا زوجين أم غير ذلك، كلٌّ يفكر تبعًا لبيئته، وقد نشأتُ والحمدُ لله أنه لا يسير رجلٌ وامرأة في هذا الليل الداجي، إلا وهُما زوجان، لكن هُنا يبدو أن كل الخيارات مُتاحة!

الوضعُ هنا مختلف تمامًا، عن كلِّ ما عهدتُه في بلادي، كل شيءٍ مفتوحٌ على مصراعيه للجميع! راشدين كانوا أم غير ذلك! كلٌّ يفعلُ ما يُريد. المكتباتُ منتشرةٌ ينهلُ منها المثقَّفُ والطالب، دُور الأزياء للمهتمَّات بالموضة، وأماكنُ أخرى بالطبع!

الرجال مع النساء جنبًا إلى جنب، على نحوٍ أثار استغرابي بادئ الأمر، سائقةً، بائعةً في محل، نادِلة مقهى، عاملةَ بناء... وهكذا، في كل شيء لم تعتدْه عينَيَّ منذ جئتُ للدنيا.

هذا النوعُ من الحياة ليس مريحًا البتة، أعني: أن يعمل الرجل

---

(١) أستاذ مشارك في الحديث وعلومه - جامعة أم القرى/ السعودية.

– أبًا كان أو زوجًا أو أخًا– بجوارِ امرأةٍ غريبة، ليس مريحًا لكلا الطرفين، للزوجة والزوج الذي يقضي سحابة يومه مع هذه (المرأة) الغريبة، وللمرأةِ التي تعملُ بجوار هذا (الرجل) الغريب أيضًا!

أتذكّر أن هذه الفكرة –وهي أن قضاء وقتٍ طويل مع رجل أو رجال غرباء ليس مُريحًا–كانت محلَّ إجماع في مجلسٍ ضمَّ أستاذات وطبيبات ومهندسات من كافة أطياف المجتمع –ابتُعِثن حينًا من الدهر– عدا واحدة وجَّهت كلامها بلهجةٍ مُعترضة لصاحبةٍ لي، سيماها الوقار والصلاح:

–صحيح الوضع مب مريح، لكني لا أنسى أحدَهم حين جاء ذكر هذا الموضوع في العمل، برَّأ ساحة الرجال، وقال: "إن الشرَّ كل الشر يجي من صُوب الحريم" !

وسأكفيك عناء سؤالك، لأني أدري أنكِ تتساءلين عن منشأ حماقته، كان يقول في السُّنة أنه: «لولا حواء لم تخُن أنثى زوجها».. ولولا بقيةُ الحياء التي ورثتُها عن والدتي لكان لي معه تصرفٌ آخر!

توجَّهت الأبصارُ لصاحبتنا الوَقورة، فابتسمتْ لهن كأصدق ما تكون البسْمة، ثم قالت لها: ما رأيكِ أن تُكملي فنجان قهوتكِ قبل أن تبرُد؟ لعل أعصابك تبردُ معها يا دكتورة –قالتها بتودُّد– عاد

حاجبا الدكتورة لوضعِهما الطبيعي، وازْدَردت ريقَها، ثم ابتسمتْ: تغلبيننا بخُلُقك في كلِّ مرة! بس صدق الكلام اللي قالُه؟

-أبشري سأجيبُك، لكني أخاف أن يطول المجلس، ونحن جئنا للاطمئنان على أحوال بعضنا، لا لأستأثر بالحديث، ما رأيكِ لو هاتفتِني في أي وقتٍ يناسبك؟ ترى الأمر أجمل وأسهل مما تتصورين، لكني أحب تصلك الصورة بأنصعِ ما يمكن.

شاركتْنا أخرى: طيب.. ممكن تفهّميننا القصة باختصار بعدين تشرحين لها بالتفصيل؟ بصراحة أول مرة أسمع هذا الحديث، وضاق صدري! دائمًا أسمع إن الرسول ﷺ يقول: «رفقًا بالقوارير» و«خيركم خيرُكم لأهله»... بس بعد هذا الحديث اللي سمعته، اختلطتْ عليَّ الأمور!

-يعُجبني أنك تستحضرين نصوصًا أخرى، لتُعينكِ على الفهم! صح عليك! دائمًا الرسول ﷺ يجعل مقياس رجولة الرجل مدى إحسانه للمرأة، وهو نفسه ﷺ كانت تفاصيلُ حياته في بيته عامرةً باللطفِ والإنصاف، وجَعل المرأةِ عُنوانَ كلِّ جميل.

باختصار: هذا الحديث صحيحٌ، مرويٌّ في الصحيحين[١]، والإشكالُ حصل في فَهمه لا في ثبوته.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٥٢) ومسلم (١٤٧٠).

=تمام! تكفين ما الفهم الصحيح؟ كنت حاسَّة أن المرأة ليست أساس البلاء مثل ما قال ذاك الرجل!

-أولًا، تعالي ندقق في الحديث: كيف تخون حواء آدم عليه السلام؟ ومع مَنْ مِن الرجال ولم يكن غير آدم؟ هذا في حال تفسير الخيانة بمعناها المتبادر إلى الذهن وهو فعل الفاحشة.

إذًا ما معنى الخيانة في الحديث؟ الخيانةُ من حيث أصلها، لها عدةُ معان: منها نقصان الوفاء، ومنها مُخالفة الحق، وقد شاع استعمالها في معانٍ أخرى؛ كالكذب، وتركِ النصح، والمعصية، وإفشاء السرّ، وغيرها.

=بدأتِ تعقّدين الموضوع!

-المعذرة، طيب نرجع لأصل موضوعنا، أن الرجل الذي بهتَكِ بهذا الحديث، كان يقصد الخيانة بمعناها المتبادر للذهن! صح؟

=حسبي الله ونعم الوكيل، صح!

-هذا المعنى غير مقبول! ولا معقول أصلًا! لأنه لم يكن ثمة رجل غير آدم لتحصل معه الخيانة، إضافةً إلى أن الخيانة في الفراش لم تقع لامرأة نبيٍّ قط! وحيثما ذُكرت الخيانة مع امرأةِ نبيًّ من الأنبياء مثل امرأتيّ نوح ولوط، فالمراد بخيانتهما أنهما كانتا

على دينٍ غير دين زوجيهما، فإن الله ما كان ليجعل امرأة أحدٍ من أنبيائه بغيًا!

=للحين حلو، وممتاز، لكن فيه استفهام: ما المعنى المقصود إذًا؟

-ثمة معانٍ كثيرة قالها العلماء في هذا الحديث، لكني أطلتُ عليكنّ جدًا، وأخشى أن أطيل أكثر.

تدخَّلت صاحبةُ البيت: بصراحة الحديث أثارني، وإلا فعادتي أملّ بسرعة، وبما إن شهد شكّكتنا كلنا لما قالت السالفة، فلو سمحتِ كمّلي شرحك عندنا كلنا الحين، ولو عندك زيادة قوليه لها لما تتصل عليك... إيوا! ما المعاني المحتملة يا الطيّبة؟

-بعضهم قالوا المقصود بالحديث: تزيين حواء لآدم الأكلَ من الشجرة، وقال بهذا علماء كثيرون، منهم ابن حجر، فإنها لما حسّنتْ لآدم الأكلَ من الشجرة، عُدَّ ذلك خيانةً.

وهؤلاء استندوا على أحاديث ضعيفة وإسرائيليات جاءت بهذا المعنى، إلا أن هذا لا دليل عليه من ظاهر الكتاب والسنة، بل ظاهر القرآن يدل على أن آدم وحواء قد أكلا من الشجرة معًا، لا أن حواء سبقته إلى ذلك، أو أنها هي التي زينت له الأكل منها، وأن ذلك كان بتلبيس إبليس وتزينه ووسوسته لهما جميعا، كما قال

تعالى: ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢)﴾ [الأعراف: ١٩-٢٢].

وثمة معنًى آخر ذكروه؛ فإنهم قالوا إن خيانة حواء لآدم المقصود بها: ترك النصيحة له في أمر الشجرة لا غير ذلك، وقال بهذا القول مجموعة من العلماء منهم، ابن الجوزي.

قاطعتْنا شهد: هذا التفسير أقرب للطبع، وللعقل، وللمنطق، ولا يجعلنا نحن أسُّ المصائب دائمًا!

-أوافقك، ربما يكون هذا القول هو الأقوى من وجهة نظري - والله أعلم - لأن الرجل تعترضُ حياته عدة ابتلاءات، فإن كان له زوجةٌ عاقلةٌ وفية فإنها تكون له ناصحة؛ لأن لها تأثيرًا بالغًا لا يصل إليه أحدٌ غيرَها، فهي أقربُ الناس لزوجِها، وأكثرُهم فهمًا له، فإن كانت تقيةً تخافُ اللهَ فيه، قوَّت من عزمِهِ على الخير، وباعدتْه عن مواطن الشرِّ والهلَكَة، كما جاء في الأثر؛ كانت الزوجة الصالحة

من السلف الصالح تقول لزوجها إذا خرج إلى عمله:

«اتق الله ولا تطعمنا من حرام، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار!».

هذه أقوال العلماء، ذكرتُها لكُنَّ بصورةٍ مختصرة، مع ثقتي أنكنّ لا تتشوَّفن للمعنى المقصود، قدر تشوُّفِكنَّ لدفعِ معنىً خطر في أذهانكن أن في الحديث اتهامًا للمرأة!

=بصراحة؟ إي والله، هذا الذي خطر في بالي وكَرَبَني من الأمرِ كلِّه!

-اللهُ عدلٌ لا يظلم أحدًا، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى... ضعي هاتين الحقيقتين في ذهنك أمام كلِّ استشكالٍ يطرأ عليكِ.

والحديث على فكرة، أشكل على العلماء من قبلنا، فالأمرُ ليس مقصورًا علينا! وقد ذكره ابنُ الجوزي في كتابه: "مُشكل الصحيحين"، ومن الممكن أن نخرج من تأمُّل هذا الحديث، وقراءة شروحِه، أنه جاء للتأكيد على شيئين:

**الأول**: أن مخالفة حواء وأكلها من الشجرة وتزيينها لآدم – لو ثبت – أمرٌ قدريٌ إلهي، فلا تلام عليه ولا تعاب به، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّ آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم! أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له

آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة». فقال النبي ﷺ: «فحجَّ آدم موسى، فحجَّ آدم موسى»(١).

قال النووي في شرحه على الحديث: «ومعنى كلام آدم أنك يا موسى تعلم أن هذا كُتبَ عليَّ قبل أن أُخلَقَ، وقُدِّرَ عليَّ، فلا بد من وقوعه، ولو حرصت أنا والخلائق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر، فلمَ تلومني على ذلك؟ ولأن اللوم على الذنب شرعي لا عقلي، وإذ تاب الله تعالى على آدم، وغفر له، زال عنه اللوم فمن لامه كان محجوجًا بالشرع»، وهذا ينطبق على أمِّنا حواء، فإن كتب الله على حواء الذنب والخطية، فقد تابت وغفر الله لها.

**الثاني**: أن لفظ الخيانة الذي استشكله المعترضون واستبشعوا وصف الأنثى به قد يجري على ألسنة عوام الناس وعند الإناث كثيرًا، إذ ربما قالت الواحدة لصاحبتها: "يا خاينة!"، ولا تقصد به المعنى الاصطلاحي (الزنا)، بل تقصد به عدة معانٍ، منها: إخفاء أمر ما، أو فعل أمر بدونها، ومن باب أولى أن يفهم معنى الخيانة هنا بما يتفق مع الأدلة الشرعية، وبما لا يتعارض مع ظاهرها.

أرجو أن الحديث قد حُلَّ إشكاله عندكنَّ، وإن كنتُ أعلم تمام العلم، أن خلافكنَّ ليس مع الحديث، بل مع مُناسبة قولِه عند كل

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٢).

كبيرةٍ وصغيرة، على نحوٍ مُخالفٍ للمُراد الأصليِّ منه.

على مبعدةٍ منّا، كانت تجلس إحداهن صامتةً طيلة الوقت، إلا أنها فاجأتْنا برأيِها في ختام نقاشِنا المطوّل: شكرًا لكِ، أول مرة أستمتع بدَرس، في جلسة قهوة ☺

-ما كان القصد يا حبيبتي، لولا إلحاحكنَّ ما استرسلتُ... المعذرة منكنَّ جميعًا!

=لا شدعوى! انبسطنا، وفهمنا صحّ... دائمًا ما تؤكد لي الأيام إن المشكلة في قلة علمنا بالشريعة والعربيّة، والله صدق! فأي واحد يجي يرمي شُبهة، نشكّ مباشرة! في حين لو كنا نفكّر شوي بسّ! ما كنّا اهتزينا مقدار شعرة.

-كلامك صحيح، لذلك، الصواب دائمًا في سؤال أهل العلم، أمر ديني تسأل عنه (علماء الدين)، أمر طبّي تسأل عنه (علماء الطب)... إلخ.

لـمَّا أسأل مُهندسًا كهربائيًا عن المتانة المناسِبة لخرسانة البناء، هُنا أنا المخطئة ابتداءً لما سألتُه، وهو سيكون مخطئًا إن أجابني!

من بعيد، لوَّحت لنا مُضيفتُنا أن: تفضلنَ على العشاء... فانفضَّ الجمع.

عدتُ للبيت، جلستُ مع أطفالي حتى حان وقت نومِهم، فلمّا

ناموا بسلام؛ مشيتُ بخُطىً وئيدةٍ ناحية رُكن القهوة، أصنعُ لي كوبًا بصُحبة كتابٍ أحبُّ قراءةَ بعضٍ منه قبل مجيء اليومِ الجديد وزِحامِه. وما إن ثنيتُ صفحة كتابي الجميل، إذا بهاتفي يرنّ! ليس من عادته إزعاجي في هذا الوقت من المساء، خيرًا إن شاء الله، من يكون؟

صعَّدتُ بصري في شاشة هاتفي، فملأتْني البسمة، وهززتُ برأسي وأنا أتحدَّثُ إلى نفسي: كنتُ متأكدةً أن لدى شهد بعض السؤالات التي لم تشفِ غليلَها بعدُ، فعيناها كانتا تحملان سؤالًا بعيد المدى!

-يا أهلًا أهلًا شهد!

=بصوتٍ خَجول: يا مرحبًا بك! المعذرة عسى ما أزعجتك؟

-أحلى إزعاج، سمي آمريني...

أولًا: المعذرة إننا توّنا تودّعنا من بعض، ثم أتصل عليك، لكن الحقيقة إني خجلت من البنات في المجلس، فقلت لن أكثر عليكِ من الأسئلة بحضرتهم.

-شعرتُ بذلك، لذا فرحتُ جدًا باتصالك، ما اللغزُ الذي لا يزالُ باقيًا في خاطرك؟

=شوفي، أنتِ فسرتِ معنى الخيانة، وبرّأتِ ساحتنا والحمد

لله... لكن بقي عندي إشكال!

-ألا وهو؟

=(لولا حواء لم تخُن أنثى زوجها) كيف يعني لولا حواء؟ يعني هي السبب؟ حتى لو قلنا الخيانة بمعنى ترك النصيحة؟ ما أدري ما علاقة أمنا حواء؟

-أوه، يبدو أني اعتنيتُ ببيان معنى الخيانة، ونسيتُ بيان المعنى الكُلِّي للحديث، المعذرة!

تعالي لأضرب لكِ مثلًا حتى يتبين لكِ بكل سهولة:

هل تُشبهين والدتكِ في العناية بترتيب المنزل، والاهتمام برائحة البخور على نحوٍ فريد؟

=نعم، جدًا!

-يا سلام عليك! هذا يُسمى (وراثة)، يعني صفات اقتبستيها من والدتك، إما وراثة جينية، أو أنكِ قد اكتسبتِها لكثرة تكرار هذه الأمور قُبالة ناظريك، صح؟

=صح!

-هذا معنى الحديث.

=ما دخل الوراثة؟ أرجوك!

-حواء أمُّنا، لذا نحنُ نرثُ منها بعض صفاتها، ومقلٌ منا ومستكثر، فإن تركت النصح، أو خالفت الأمر، فإن هذا ينتقلُ لبناتِها -نحنُ- ليس الأمرُ قهرًا البتة، بل يعني أن منّا من تجتهدُ في تعديل هذه الصفات التي لا يحتاج بقاؤها لكثيرِ جُهد، لكن مقاومتَها يحتاج بذلًا، ككلِّ الأشياء الجميلة، وحتى يطمئن قلبُك فالأمر نفسُه عند الرجال، ففي الحديث: «جحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته»[1]، فإن الأصلَ (أبانا آدم) لمّا نسي، نسيت ذريته من بعدِه، وهكذا.

وأظنُّ أنكِ رأيتِ بأمِّ عينيك، أن النصوص الشرعية لا تحيُّزَ فيها لجنس أو نوع، إنما تخاطب كل جنس بما يناسب طبيعته وفطرته وبما جُبِل عليه من الطبائع.

=تدرين إني اتصلت بك وأنا ممتلئةٌ غيظًا، وأنا الآن هادئةٌ ساكنة، من الأصل قلبي يقول لي: مستحيل النبي ﷺ يقول شيئًا ضدنا.

-ليهنِكِ قلبُك، أدامَ الله صوتَه الحيّ.

=شكرًا كثيرًا! الله يتولى مكافأتك.

-وإياكِ يا حُلوة، ليلةً طيبة.

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٧٦).

# مخرج...

المثالية:

سيرٌ في (الاتجاه المعاكس) لطبيعة النفس البشرية !

# تُقبِل في صورةِ شيطان

هند بنت عبدالإله المشرف[(١)]

بقيت ليلة أجول بفكري في الطبيعة الهاجعة في أثواب الجمال، البديعة في تناسقها ومكوناتها؛ يذهلني الصُنع المُتقن، وتنعش روحي تلك الأنسام الهادئة، أهرب بعيدا عن كل آلام العالم وصراعاته، وألتمس شيئا من سكون وطمأنينة في صفحة السماء، أتأمل كيف يمكن للسماء أن تحمل للعالم النور والانطفاء، الصخب والسبات؟!

صفحة الأفق التي تشرق فيها الشمس صباحا فيولد كل شيء، وتزهر الحياة، تكتسي حلة قاتمة في المساء، ولا يبقى من ضيائها سوى نجمات مبعثرة تومض على حياء.

أيمكن أن يحمل التشابه الظاهر تباينا شاسعا؟ وأن يكون الاتفاق بقدر الافتراق؟!

هذا الغيث حين ينسكب فيغسل الأرض ويسقيها، يفترق في آثاره، فتارة ينبت الزهر، وتارة ينبت الحنظل، وتارة يفيض حتى تضطرب به المساكن والحياة، وفي البقعة الواحدة تخرج نباتات شتى، تختلف في أسمائها وألوانها ومذاقاتها، كل بقعة في الأرض

---

(١) باحثة دكتوراه في السُنة وعلومها - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية/ السعودية.

تبدو كعالم متفرّد في خصائصه وبيئته ومكوناته، فحين تنظر إلى الصحراء في حَر هجيرها، وامتداد رمالها تدرك بداهة أن الخزامى[١] الذي اختار أن يعطر أرجاءها مع قسوة الظروف قد يذوي في الظروف اللينة، وتلك الناقة التي تجوب المدى بحثا عن المراعي تسقم بل تموت إذا وضعت في المروج الخضراء.

يا الله... عَجَبٌ هذا الكون! قادني ذُهولي من تأمُّلاتي تلك؛ لطرح إشكال كبير!

إذا كان الكون مجموعةً من العناصر، التي لا تنفك عن بعضها من حيث التفاعل والتأثير، بحيث لا يستقيم الحُكم عليها بمعزلٍ عن البقية، وكانت "الأشياء" المحسوسة تتبدل، وتتغيَّرُ أحكامُنا عليها بتغير المؤثرات الأخرى؛ عُمرًا كان أو بيئَة أو مزيدَ علم، فكيف يسوغ أن ننظُرَ للحقائق مبتورةً أو مجردة؟ كيف نقبلُ أصالةً بذلك؟

يصوِّر ذلك في عالم المعاني؛ أن الأدب الذي هو أحدُ ألوان الفن الذي يعبِّر عن الروح؛ يتأثر بالبيئة والظروف؛ فالشاعر الجاهلي مثلًا قد اعتاد أن يستفتح قصائده بالبكاء على الأطلال، ونحنُ العربُ نفهمُ هذا، لكن هل يمكن أن يستوعب المستشرقُ الغربيُّ العُمقَ والذكريات التي ترمز إليها؟ هل من المعقول أن

---

(١) أحد أنواع النباتات يتميز برائحته العطرة.

يهديه عِلمُه لسببِ ذكر امرئ القيس مراتعَ صِباه، ودموعَه الآسيةَ عليها؟ أيمكن أن يتجاوز بيئته وإطاره الثقافي والمعرفي؛ ليدرك أن معاناة الترحال التي ترهق العربي هي جزء من تعايشه مع بيئته، وأنَّ تغنِّيه بأمجاد قبيلته جزءٌ من إبراز هويته واعتزازه بعِرقه الأصيل؟

الحقيقة أنه بالرغم من المُشتركات الإنسانية الكثيرة، إلا أنَّ الفهمَ الدقيق لا يسعُه أن ينشأ من معرفة الصورة العامة فحسب، بل يتطلب إدراكًا عميقًا للتفاصيل التي تحوطُ المشهدَ بالكُلِّية؛ ماذا أعني بذلك؟ أعني أن إدراك السياق المعرفي والثقافي الذي توجد فيه الحقائق ضروريٌ للفهم الصحيح، أو القريبِ من الصحيح؛ إذ أنَّ فصلَ الحقائق عن سياقاتها ثمرتُه فهمٌ ناقصٌ ومشوَّه.

دارتْ في خَلَدي هذه الخُلاصة حولَ ضرورة إدراك السياق للأمر الذي أودُّ تكوين رأي حولَه، أو فَهم صحيحٍ له؛ حين كنَّا في محفلٍ كبير... أقصدُ القاعةَ الكبرى، وإلا فإنَّنا لم نكُن في حفل، وقد زارتْنا يومَها إحدى الأستاذات اللاتي لهُنَّ اهتمامٌ واضح بالمرأة والفِكر وما حولَهما، وبالنسبةِ لي فقد جمعتْني معها مجالسُ خاصَّة، وهي ممَّن فُتح لها في العلم الدنيوي - حيثُ كان تخصصها في مسار هندسي دقيقٍ - وفي العلمِ الشرعي، فاستطاعتْ بتوفيق الله أن تُبرهِن على أفكارِها بكيفيةٍ محسوسةٍ تبرقُ معها أعينُنا نحنُ الذين نتعطشُ لأمثلةٍ لكلِّ ما يُعيينا فَهمُه نظريًّا.

لا أدري لماذا استطردتُ بذكرِ سيرتِها؛ لكني تذكرتُ ذلك أثناء سؤال إحدى الحاضِرات في القاعة لهذه الأستاذة، إذ كانت تسألُ بوثوقيةٍ عالية – وهي لا تعرفُ عن الأستاذةِ شيئًا غيرَ أنها تَزورُنا هذه المرة – وتحدٍّ صارخ، بُغيةَ إحراجِها أمامَ هذا الجمع، بدا ذلك واضحًا من ساعةِ مناداتِها لابنةِ النِّظام الواقفةِ بالجوار لتُمسِك باللاقط وتطرحَ استشكالَها بلا سلامٍ أو مُقدِّمات، بعد أن ابتسمتْ ابتسامةً صفراء لصاحباتها الثلاث اللاتي يجلسنْ بجوارها يمينًا ويسارًا...

وقد أمكنني رصدُ هذا المشهد كوني أجلسُ خلف كُرسيِّها مباشرةً، بصراحةٍ! كان سؤالُها مستفِزًا، ويفتقرُ للأدب، وخالٍ من أي لقبٍ للأستاذة، ولو كان المسؤول غير هذه الأستاذة لكان الاستشكالُ مُحرِجًا جدًا! لا لصعوبة الجواب، بل لافتقاره لعلمٍ، وسُرعةِ بديهة، وقلبٍ للطاولةِ برضى الجميع! وهذا مما لا يُحسنه غير هذه المُحاضِرة!

حين استفتحتْ إجابتها بتعزيزِ السائلة، ثم أتبعت التعزيزَ بمثالٍ محسوسٍ، اتفقَ معها الجميعُ فيه، بمن فيهم صاحبتُنا السائلة.

وسأحاول إيجازَ السؤال وإجابةَ الأستاذة عليه، لأني تمنيتُ ساعتَها لو أنَّ كل نساء مُجتمعي قد حضرنَ مقالتَها تلك، وأحبُّ لهن أن تبلغهنَّ إجابتها المُسدَّدة.

تطرّقت الأستاذة لحديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ رأى امرأةً، فأتى امرأته زينب وهي تمعس منيئةً لها، فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: «إن المرأة تُقبل في صورة شيطان، وتُدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأةً فليأتِ أهله، فإن ذلك يَرُد ما في نفسه»(١).

وكان وجهُ الاستشكال في الحديث هنا هو في عبارة: «تُقبل في صورة شيطان، وتُدبر في صورة شيطان».

وفحوى سؤال صاحبتِنا: إلى أي حدٍ تُحتقر المرأة وتُشَيْطَن؟

في غمرةِ السؤال الصعب، جاء الردُّ سريعًا مُجلجِلًا في القاعة الكُبرى: السؤال الذي يطرح نفسه يا بنات؛ هل يدل الحديث على هذا المعنى فعلًا؟

هل يحمل معنى شيطنة (ذات) المرأة؟!

تعالين، نفكّك السؤال أكثر:

هل ورد في النصوص الشرعية استعمال مصطلح الشيطان لغير الذوات الشيطانية كإبليس وذريته؟

وهل ورد في النصوص أيضًا استعمالُها في حق الرجل؟

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٠٣).

وجَّهت حديثَها إلينا بصورةِ قاعدةٍ للتعامل مع سائر مناحي الحياة: بنات؛ التعاطي مع هذا النوع من الاستشكالات بهذه الأسئلة الكبرى، يَحملُ لك مفاتيحَ حل الإشكال الوارد عليكِ، أيًا كان نوعُه، بإذن الله.

أولًا: الحديث صحيح من حيث إسناده، فهو في صحيح مسلم وغيره، ولا مطعن فيه من حيث الثبوت، إذًا ثبوتُه لا نقاش فيه.

ننتقل للخطوة التالية: ما دام الحديثُ صحيحًا، فإن منشأ الإشكال في الفَهم، هل المراد بالشيطان الشيطان فعلًا؟ أم أنه قد ورد استعمال هذا المصطلح لغير الشياطين؟ رجالًا ونساءً؟

قال أهلُ العلم: إن التشبيه هُنا ليس المقصود به وصفُ الذات بأنها شيطانية، يعني ليست المرأة شيطانًا!

وإنما المقصود به: التشبيه في التأثير والوصف الذي يتلبس به الشخص، مما يشابه خصال الشيطان من الفتنةِ والإغواء والوسوسة.

هل في هذا مذمَّة؟ أبدًا.. ها نحن نرى الشاعر حين يُبالغ في وصف شعوره تجاه محبوبته التي تركتْه وأبعدتْه فخرج وفي نيته ألا يعود، ثم فوجئ بها تتبعه فقال:

نسيتُ ما بي هزَّتني فُجاءتُها ❋ وفجَّرت من حناني كل ما كَمُنا

وقلتُ يا فتنتي ما تفعلين هُنا * البردُ يؤذيك عودي! لن أعود أنا

فمِن فرطِ تأثيرَها عليه، ناداها بوصفِها (فتنة)!

وبهذا المعنى – أعني: قوة التأثير على الرجل، والقدرة على الإغواء واستمالة الشعور– تضافرت أقوال أهل العلم.

قال القرطبي: «قوله: "إن المرأة تقبل في صورة شيطان" أي: في صفته من الوسوسة، والتحريك للشهوة؛ بما يبدو منها من المحاسن المثيرة للشهوة النفسية، والميل الطبيعي، وبذلك تدعو إلى الفتنة التي هي أعظم من فتنة الشيطان»[1].

وقال النووي: «قال العلماء: معناه الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بنظرهن، وما يتعلق بهن، فهي شبيهةٌ بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته، وتزيينه له»[2].

ثمةَ سؤالٌ مُلحّ: تُرى... هل نُحاول الفرارَ من المعنى الواضح لورودِ كلمة (شيطان) في الحديث؟ معاذَ الله! ليس لدى المسلم ما يفرُّ أو يخجلُ من إيضاحه في أمورِ دينه، ولأُبرهن على كلامي من الحديثِ نفسه – وهُنا عمَّ الصمتُ سائر أنحاء القاعة! – مما يؤكد

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي (٤/٩٠).
(٢) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي (٩/١٧٨).

أن السياق بعيدٌ تمامًا عن انتقاص المرأة، أن التوجيه في الحديث بعده كان للرجل بأن يأتي أهله، فلو كان المقصود شيطنة الذات لكان المتوقع أن يطالب بالفرار إلى الصلاة أو الذكر، ولم يأتِ الأمر بأن يفرَّ من ذاتٍ شيطانية إلى أخرى!

"أعتقد أن الصورة اتضحت الآن بنات".. لمّا قالتْ كلمتها هذه، شعرتُ أن أنفاسَ الحاضراتِ قد هدأتْ، ورصدتُ ابتساماتٍ كالشهدِ تعلو كلَّ من وقعتْ عليها عيني، فرددتُ في خاطري: الله يسلِّمك من كل أذى يا أستاذة، كما سلَّم اللهُ بكِ قلوبَنا من فَهم خطأ لا نضرُّ به غيرَ أنفسِنا.

ثم أكملتْ بفقهٍ متين: وكذا فإنَّ من عادة الشارع توجيه الذم إلى الفعل لا إلى الذات، ثم إتباعه ببيان سبب النجاة، فمبدأ استمرار الخطيئة مخالف للأسس الشرعية التي تقرر أن التغيُّر والتوبة متاحان للإنسان مادام حيًا، ولهذا يوجه الله تعالى خطابَه بالتوبة إلى عتاة المجرمين، كما وجهه لأصحاب الأخدود ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] فليست سابقةُ الإثم عائقًا عن التصحيح فيما بقي.

ويبقى السؤال: ما السياقُ الذي يتوجب فهم الحديث من خلاله؟ وكيف يتجاهله مَن تجاهله؟

هذا الحديث ليس نصًا فريدًا يتعلق بالمرأة، بل هو واحد من منظومة متكاملة تتصل بها، تبدأ من حين ولادتها بتجريم وأدها، وانتقاد شعور الحزن على ولادتها، والحثِّ على الفرح بها وحسنِ رعايتها؛ ابنةً وأمًا وأختًا وزوجةً.

ويظهر ذلك كلُّه في أبهى صُورِه، في حياة النبي ﷺ الذي اختار الله له أن تكون ذريته من البنات، فقدم النموذج الأكمل في الاحتفاء ببناته، وحسن رعايتهن، يظهر ذلك حين يقوم لفاطمة رضي الله عنها في كل مرة تزوره ليُقبِّل بين عينيها، وحين تهطل عيناهُ لزينب يوم أن بعثت بقلادة أمِّها الأثيرة لتفدي زوجها، فيقول: «إن رأيتم أن تطلقوا لهذه أسيرَها وتردُّوا عليها قلادتها فافعلوا»، ما مَلَك عيناه ﷺ حين تذكَّر أحبَّ نسائِه إليه: خديجة رضي الله عنها، أم زينب وسائر بناته، حبٌ ممتدٌ لم يجفَّ مع السنين!

وعندما يقوم على المنبر مُحذرًا من رذيلة المُحاباة في حدود الله، فيضرب المثل بأعز الناس على قلبه فاطمة فيقول: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، وهي مَن هي بالمكان الذي تعلمون.

وتضطرب ملامحُه ﷺ لمَّا سمع الصوت الذي ذكَّره ببعضِ حبيبته خديجة التي لم تزِدها الأيامُ - رغم الغياب - إلا شوقًا، فيسعى ليسكِّن الروح التي هاجها الشوق على حين غرة «اللهم

هالة».

وفي خطبة الوداع وهو أكبر محفل إسلامي كان أكثر حديثه ﷺ في التوصية بالنساء.

لو كانت المرأة شيطانًا في ذاتها لما اختار الله لنبيه وصفوة خليقته أن يموت في حِجر امرأةٍ ويدفن في بيتها.

أين حصل تجاهل سياق هذا الحديث الذي استشكلتْه تلك السائلة؟

حصل تجاهلُ السياق مع هذا النص مرتين:

مرةً في جانب المرأة نفسها كما تقدم في النصوص التي أبانتْ لنا - بيانًا كالشمس - مكانةَ المرأة في الشريعة.

ومرةً من جهة التشبيه بالشيطان، فالذي يجمعُ نصوص الشريعة يجد أن الوصف قد أُطلق على الرجل أيضًا!

-وهُنا لا يسأل أحد عن وفرة الابتسامات التي تبادلتْها الحاضرات بلا استثناء للدرجة التي علّقتْ عليها المُحاضِرة-!

هل يوجد في نصوص الشرع تشبيه الرجل بالشيطان؟

نعم! وسأكتفي بذكر ثلاثةِ أمثلة:

١. جاء ذلك في سياق التنفير من بعض الأحوال أو التصرفات،

كالسفر منفرًدا حيث قال ﷺ: «الراكبُ شيطان، والراكبان شيطانان»، يعني عاصٍ[1].

٢. وكذلك وُصف به مَن يمر بين يديِّ المُصلي فيزجره المُصلي فيعاود المرور، فعن أبي سعيد الخدري أنه كان يُصلي إلى سارية، فذهب رجل من بني أمية يمر بين يديه فمنعه، فذهب ليعود فضربه ضربة في صدره، فذكر ذلك لمروان، فلقيه مروان، فقال: ما حملك على أن ضربت ابن أخيك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره، فذهب أحد يمر بين يديه فليمنعه، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان»[2].

٣. وقال فيمَن يتحدث من الزوجين عن خصوصيات العلاقة: «إنما مَثلُ ذلك مَثلُ شيطانةٍ لقيت شيطانًا في السِّكَّةِ فقضى منها حاجته والناسُ ينظرون إليه»[3].

وعلى هذا يتبيَّن لنا من مجموع النصوص أن التشبيه بالشيطان ليس المقصود به ذم الذات أو الجنس، إنما المقصود به ذمُّ الفعل، أو وصفُ قوة التأثير.

كما وُصفت به بعض البهائم أو المخلوقات أيضًا كما في

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (١٢٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩) ومسلم (٥٠٥).
(٣) أخرجه أبو داود (٢١٧٢).

حديث أبي ذر عن النبي ﷺ: «الكلب الأسود شيطان»[1].

ووصف الله عز وجل به شجرة الزقوم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات:٦٥] تجسيدًا للبشاعة، مع أن الشياطين غير مرئيَّة بالنسبة لنا، وهو أسلوب معهود في اللغة .

ما السرُّ إذًا وراء الفهم الخطأ للنص؟

يبدو لي أنَّ السرَّ يعود لتجاهل السياق المتقدم؛ واستدعاءِ سياق آخر لا يناسب الحديث ولا الموقف، فكما أنَّ فكرة تحرير المرأة مستوردة، فإن خلفيتها الفكرية مستوردة كذلك!

حيث كانت الكنيسة التي تقوم على أُسس النصرانية المُحرَّفة تنظر لجنس المرأة كمخلوق شيطاني، ناقص، وتُحمِّلها وحدها مسؤولية الخطيئة التي وقعت من أبينا آدم عليه السلام[2]، وترى في الحمل وآلام الولادة عقوبةً للمرأة وتخليصًا لها من الخطيئة، وهذه الفكرة تستند إلى نصوص في الكتاب المقدس - الذي طاله التحريف بلا شك - ففي سفر التكوين (٣:٢١): «أنتن بوابة الشيطان، وأنتن أول مَن أكل مِن الشجرة، وأنتن أول مَن عصى الناموس الإلهي، وأنتن مَن حرَّض ذاك الذي لم يجرء حتى

(١) أخرجه مسلم (٥١٠).
(٢) مضى التوسُّع في مناقشة هذه الفكرة في مقال: (لولا حواء لم تخن أنثى زوجها).

الشيطان على الاقتراب منه»[1].

ويقول بولس -اليهودي الذي حرَّف النصرانية-: «آدم لم يغوَ، ولكن المرأة أغويت فحصلتْ في التعدي»[2]، وهذه الفكرة ظاهرةٌ لكل مُطَّلع على التراث الديني النصراني، وهذه النظرة الناقصة هي التي دفعت النساء في الغرب للتصدي لها بحملات تماثلها في العنف والشراسة تجاه الدين.

إذًا؛ منشأ الخلل في فهم الحديث: نقل النص من سياقه إلى سياق آخر مُغاير تمامًا.

وهذا خللٌ منهجيٌ بالغُ الخطورة، يقول د. عبدالوهاب المسيري: «من الأمور المألوفة في الوقت الحاضر أن نتلقى معظم -إن لم يكن كل- ما يأتينا من أهل الغرب بكفاءة منقطعة النظير، دون أن نحاول أن نحلِّله أو نفسِّره، ودون أن ندرك أن ما يأتينا منهم يعكس منظورهم وتحيزاتهم (كما هو متوقع من كل ما هو إنساني)، إذ أننا نكتفي دائمًا بنقل أفكارهم من وجهة نظرهم دون أن نطرح أي أسئلة تنبع من رؤيتنا التاريخية وتجربتنا الإنسانية»[3]!

* * *

(١) الآباء والمرأة، سلسلة رسائل آباء الكنيسة، أليزابيث كلارك، ص٢١.
(٢) تيموثاوس الأولى (٢:١٤)، نقلًا عن: الآباء والمرأة، سلسلة رسائل آباء الكنيسة، أليزابيث كلارك، ص٣٣.
(٣) قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى، عبد الوهاب المسيري، ص٣.

## مخرج...

النصوصُ شهودٌ على كمال الشريعة وعدلها، فمَن أراد أن يستبين الشهادةَ فليستنطق الشهودَ جميعًا !

# التّصفيقُ للنساء

نورة بنت يحيى الذكير[1]

في اجتماعٍ دافئ، دار حديثٌ طويل، عن همومنا -نحنُ النساء- بـدءًا مـن الانشـغال بمسـؤوليات البيـت والأبنـاء، ولـيس انتهـاءً بالالتفات لطُموحاتنا وتلبية نداءاتها.

حين اختلطت الأصوات، كلٌ يحكي همَّه، شكتْ إحداهن مـن كونِها ذهبت للتسوُّق مرةً لحاجةٍ ضروريةٍ لمنزلها بعد دوامِها الذي تأخرت فيه، وحين جاءت لتُحاسِب حاجيَّاتِها كان المكان مزدحمًا -إذ ذهبتْ فيما يبدو في وقت الذروة- ولاحظت أمامَها صفًا طويلًا كـي يـأتي دورُهـا، وهـي في داخلهـا تُـراوِح بـين أن تـدَعَ أغراضـها وتذهب للبيت، أو تحتمل نصف ساعة وتغنمَ وقتَها الذي ذهب في المجيء لهذا المحل أصالةً، وفي وسط ذلك كلِّه، تلوم الدوامَ والتأخرَ والناسَ كلُّهم لفرطِ تعبِها .

قطع تفكيَرها الموهَن، صوت رجلٍ في أول الصفِّ: "تفضَّلي للحساب"، في حين أخذ هو مكانَها المتأخِّر، لم تصدِّق عينَيْها، فتقدَّمتْ وسط ذهولها، وحاسبتْ ثم خرجت في غضون خمس دقائق!

---

(١) باحثة دكتوراه في الحديث وعلومه بجامعة الإمام عبدالرحمن بن فيصل/ السعودية.

فلما استقلَّت السيارة أراحتْ ظهرَها على المقعد، وهي تتنهَّدُ تنهُّد الناجي من معركة، وسَرَحتْ بعيدًا بعيدًا... وصوتُها في الداخل يقول: يا لشهامة العربيِّ! لم يحتمل أن يرى امرأةً مُثقلةً بالأغراض في وقت الذروة، فقدَّمها على نفسه، ومَن يدري! لعله كان أشد تعبًا مني! لولا الحياءُ لشكرتُه، والحقيقةُ أني أكبرتُ تصرُّفَه رغم أني لم أرَه بوضوح لاشتدادِ تعبي وقتها، ثم تمتمتْ بدعواتٍ صادقاتٍ له، كان امتنانها فاخرًا.

وصلتْ البيت، وجددتْ نشاطها بالجلوس على أريكتِها، بصُحبة كوب قهوة، وإتمامًا لمراسم تحسين المزاج، تناولتْ هاتفَها وفتحتْ تويتر، تأملت في الخط الزمني لحسابها، ولفتَت نظرَها تغريدةٌ مُعادٌ تغريدُها من إحدى مَن تتابعُهم، كتبتْ فيها المغرِّدة بكل حنق، كلامًا طويلًا أشبه بمعلَّقة: «أكون متأخرة في محل، أو مطار، ثم يأتي رجلٌ ويقدِّمني عليه، مَن يظن نفسه؟ أمام طفل؟ أو مسكين؟ إحساس "حامي الحمى" عند الرجل واستضعاف المرأة حاضرٌ بشكل مقزز! الجدير بالذكر أن كل الذين قدّموني يومًا ما، عاملتُهم كأن وجودهم وعدمهم سواء، حتى يعرف مَن لا يعرف أنه أمام قوة اسمها: امرأة! ما هذا! لا تجرؤ المرأة عندنا أن تكون حرةً حتى في انتظارها»!

صاحبتُنا، وهي تقرأ... دارتْ بها الدُّنيا، وازدردتْ ريقَها

بصعوبة، وبالكاد أكملتْ قهوتَها التي بردتْ حين ارتفعت سخونةُ قلبِها!

وتردَّد في خاطرِها: صحيح، كيف أعجبني صنيعُ الرجل الذي قدَّمني على نفسه في السوق؟ لم يفعل ذلك إلا لأنه كان يراني ضعيفةً أحتاجُ مَن يُعينني، ويفوز هو بدور البطولة، كعادة الرجال!

وتحوَّل – في غضون دقيقتين – امتنانُها لغضبٍ مُستشيط، لأنها فهمتْ معروفَ الرجل الغريب أنه استنقاصٌ مسكوتٌ عنه!

على صعيدٍ آخر...كنتُ في محاضرةٍ لطالبات الطب، وقد اتفقتُ معهن في أول محاضرة: أن لكل واحدٍ منا الحق في المشاركة والاعتراض، بشرط واحد: "أن تقدِّمي دليلَك بين يديك، فلن نقبل إلا ممَّن تتكلم بعلم، وهذا سارٍ علينا جميعًا أستاذةً وطالبات" وعلى هذا اتفقنا.

تناقشنا عن الحرية، أبعادها، وحدودها، متى تكون حريةً حقيقةً؟ ومتى تكون عبوديةً مغلفةً باسم الحرية وهي أبعدُ ما تكون عنها؟ -كل هذا امتدادًا لقضية "الولاية على المرأة"-تطارحْنا الأسئلة والاستشكالات، وكان منها أن سألتني إحدى الطبيبات:

-أستاذة! عندي سؤال... الحين أنتِ تقولين أن الوليّ شخصٌ مسؤولٌ عن المرأة ويخدمها، طيب أنا غير مستوعبة كيف ممكن

يكون أبوي هو اللي يتحكَّم في جدتي؟ معقولة كذا يا أستاذة!

=سؤالك جيّد! لو سمحتِ لي آخذ آراء بقية الدكتورات في الشعبة... هل مِن رأي؟

فتتابعت الآراء واختلطت الأصوات، ما بين مؤيد، ونصف مؤيد، لكن ليس ثمةَ مَن يرفض.

سمعتُهن حتى كدنَ ينتهين؛ لأن انتهاء النقاش من المستحيلات العشرة، فتوجهتُ لهنّ قائلة:

=حسنًا، اعتراض د. شيخة فيه صوابٌ وخطأ، وحقٌ وباطل، أما الحق فقولُها إن الولي مسؤول عن المرأة ويخدمُها وهذا صحيح، والخطأ أو الجزء الذي لم أفهمه جيدًا هو قولُها: "أبوي يتحكم في جدتي" وهذا يحتاج عدة إيضاحات:

أولًا: المصطلحات التي نستخدمُها تقودُنا لقبول الشيء أو رفضِه، فلو قلتِ لطفل إني (أتحكَّم بك) لاستشاط غضبًا، وقال لك: لا! أنا كبير. هذا وهو طفل!

حسنًا، تعالين نغيِّر المصطلح: "جدتي (يخدمها) والدي، ويتفقد الأرض اللي تمشي عليها".

ما رأيكن؟ ما مِن عاقل إلا وهو يرى هذا قمة البر والإحسان، وردِّ عُشر معشار جميل أُمِّهِ عليه.

أنـتن دكتـورات، وتفهمـنَ مُـرادي جيـدًا، لا أقصـد هـذا المثـال بعينـه، لكـن لأنـه لـم يبـقَ معـي غيـرُ خمـس دقـائق علـى انتهـاء المحاضرة، سأوجِز مُرادي:

هل سمعتُنَّ هـذا الاعـتراض قبـل خمـس عشـرة سـنةٍ؟ أو عشـر سنوات من الآن؟

-بصوتٍ واحد: لا!

ساد صمتٌ رهيب في القاعـة، فأطرقـتُ هنيهـةً، وابتلعـتُ ريقـي وزمَّمتُ شفتَيّ استعدادًا للسؤال الختامي الفاصل:

هل من الممكن أن تفكِّرن في سبب ورود هذا الاعـتراض على أذهان الشابات اليوم، وعدم مجيء ١ ٪ منه قبل سنوات؟

إجابـةُ هـذا السـؤال أنتظـره مـنكنَّ في المحاضـرة القادمـة بـإذن الله... سلام عليكم!

حسنًا! هذا الموقف، والـذي قبلـه، وكثيـرٌ مـا بينهمـا، ألا يلفـتُ انتباهكِ لشيء عزيزتي القارئة؟

أحبُّ منكِ أن تكوني في أعلى مراحـل صفاء ذهنـك، وقلبِـك، لنحلِّـل المـوقفَين بهـدوء، ورَويَّـة، وتعقُّـل، وإن اسـتطعتِ اسـتبدال وقوفكِ وأنتِ تقرئين بجلسـةٍ مريحـة، وبُعـدٍ عـن الضوضـاء، فهـذا أدعى للاستيعاب الهادئ:

في الموقف الأول: كانت صاحبتُنا متعبةً فعلًا، وشكرتْ للرجل شهامةَ صنيعِه، وكانت ترى أن معروفَه هذا من أخصِّ صفات العرب: الشهامة والمُبادرةُ لتقديم العون بما تستطيع، ولو قلّ؛ لأن قليلَه كثيرٌ عند غيره!

وما إن وقعتْ عيناها على تغريدةٍ ثائرةٍ حتى تبدَّل موقفُها من أقصى اليمين لأقصى الشمال.

هل من الخطأ أن نغيِّر آراءنا؟

قطعًا: لا، لكن أين الخطأ؟ في (سُرعة) تبدُّل الآراء! أو لنكن دقيقين أكثر: في سبب تبدُّلِها على هذا الوجه من السرعة!

والصوابُ عادةً ما يكون قرينًا للتأني، والتريث، والتفكير بتؤدة، أما كثرةُ التنقُّل بين مواقع الآراء والأفكار والمواقف، فما هو من صنيعِ أرباب العقول المُفكِّرة، نعم "المُفكِّرة"؛ فلو أن نصفَ أصحاب العقول فكَّروا، لاستراح العالم من لغطٍ كثير.

وبالنظر لموقف صاحبتنا هذه، فإن الاعتراض، أو الرفض، أو الموقف المخالف، عادةً ما يعلَقُ في الخاطر أسرع بكثير من الموقف الموافِق للسائد، وهو ما يعبِّر عنه القدماء أن "الشُّبَه خطَّافة"، والشبهةُ فكرةٌ تُعارض السائد، بتعبيرِنا هذا العصر.

ربما كان السبب في كونِها خطّافةً أو سريعةَ التأثير في خواطرنا،

كونُها تُخالِف المألوف، والمعروف، وهذا تفسيرٌ منطقيٌ مفهوم، أعني: أن الشيء المختلِف أو المخالِف أسرعَ عُلوقًا مما اعتاد عليه أحدُنا.

وثمةَ ملمحٌ آخر في موقف صاحبتنا هذه، يكاد يكون هو الأساس في الحادثةِ كلِّها، أُرجِئُ الحديث عنه في بداية تحليل الموقف الثاني.

في الموقف الثاني: من الواضح أن الطالباتُ يُرِدنَ أن يُفكِّرن، لذلك بادرنَ بالسؤال، وثمةَ استشكالٌ عند السائلة، تبدَّى في صورة سؤالٍ صادق، استشكالٌ مشوبٌ باعتراض ترسَّخ -أو كاد- لكثرة ما طرقَ سمعَها وبصَرَها هذا (النوعُ) من الاعتراض، مما أحدث تأثيرًا خفيًّا على مدار سنوات، قويَ شيئًا فشيئًا حتى تبدَّى في صورةِ شُبهةٍ كادت تجدُ محلًا في قلبِها، ليس لأنها صدَّقت بها! بل لأنها سمعتْها ليلَ نهار، و"ما تكرر تقرَّر."

وكثيرًا ما يأخذ مساحاتٍ ليست صغيرةً في عقولنا: أمورٌ لا أساس لها من الصحة، لكن لكثرة دورانِها على الألسنة، ووسائل التواصل، والمجالس العامة والخاصة، كِدنا نُسلِّمُ بها**!**

فلسْنا بالمقتنعين بالاعتراض، ولا بالاستشكال، لكن الضخَّ الهائل القادم من كلِّ مكان -ببطءٍ- مستمر! لا يصمُد أمامَه كلُّ أحد**!**

ولعلَّ هذا أحدُ أبرز أسباب حضور هذا الاعتراض وإخوتِه بهذه القوة، والإلحاح في وقتنا، في حين غيابه في الأجيال التي سبقتْنا.

ولتتضح الصورةُ أكثر، أمثِّلُ بمثال من سنَّةِ النبي ﷺ:

روى البخاريُّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «التسبيح للرجال، والتصفيق للنساء»[1]، وفي رواية سهل بن سعد رضي الله عنه: «فليُصفِّح النساء»[2].

وفي هذا الحديث يُرشد النبيُّ ﷺ المسلمَ إن فاجأه أمرٌ وهو في الصلاة سواءٌ كان متعلقًا فيها؛ كأن يسهو إمامه فيزيد أو ينقص في الصلاة، أو كان متعلقًا بشيء خارج عن الصلاة؛ كأن يُطرَقُ البابُ وهو يصلّي، فإن الرجّل يسبّح فيقول: "سبحان الله" ليتنبَّه الطارقُ، وإن كانت امرأةٌ فإنّها تصفِّق بيديها تنبيهًا للإمام إن كانت في صلاةِ جماعة، وقد كان الرجال والنساء في عهد النبي ﷺ يصلُّون في مكانٍ واحد، ومنه جاء استحباب اتخاذ المرأة مكانها في آخر الصفوف.

وثمة هُنا عدة أسئلة:

١. هل تُسبِّح المرأةُ إن لم يكن ثمة رجال؟

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٠٤)، ومسلم (٤٢٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٠٣).

قال الشيخ الفقيه ابن عثيمين رحمه الله: «إذا نظرنا إلى عموم الحديث قلنا: إن ظاهره لا فَرْقَ بين أن يكون مع المرأة رجال أو لا. وإذا تأملنا قلنا: بل ظاهر الحديث أنّ هذا فيما إذا كانت المرأة مع الرِّجَال؛ لأنه قال: "فَلْيُسَبِّحِ الرِّجال، وليُصَفِّحِ النساء"، فالمسألة مسألة اجتماع رِجَال ونساء، فوظيفة الرِّجَال التسبيح، ووظيفة النساء التصفيق، والمسألة مُحتملة»[1].

٢. هل صوتُ المرأة عورةٌ لهذا الحدّ؟ هل يمكن للعبدِ أن يُفتتن وهو في الصلاة؟ لماذا لا نتكلَّم للرجال؟

هذه ثلاثة أسئلة في سؤال، فلنأخذها واحدًا واحدًا:

**أولًا**: هل صوتُ المرأة عورة؟

ليس صوت المرأة بعورةٍ مطلقًا، فلها أن تسأل، وعلى المسؤول أن يُجيب، وقد كنَّ في عهد النبيِّ ﷺ يسألن النبيَّ ﷺ ويُجيبهنَّ عليه الصلاة والسلام، وكُنَّ يسألن الصحابة، ويسألن مَن بعد الصحابة، وهذا أمرٌ معلومٌ.

ولكن العورة من ذلك ما كان عن تغنج، وعن خضوع، هذا هو الذي يُمنع، هكذا قال جلَّ وعلا: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ

---

(١) الشرح الممتع، ابن عثيمين (٣/٢٣٦).

وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٣٢] وبذلك أفتى مشايخنا ابن باز وابن عثيمين رحمهما الله تعالى.

**ثانيًا**: إذًا لماذا لا تُسبِّح في الصلاة كالرجال؟ هل من الممكن أن يُفتتن العبدُ في الصلاة؟ فيكون المنعُ من الكلام درءًا لهذا الاحتمال؟

تطرَّق بدرُ الدين العيني الحنفي (ت٨٥٥هـ) في معرض شرحِه لهذا الحديث، لسؤالِنا هذا، فقال: «وإنما كره لها التسبيح لأن صوتها فتنة، ولهذا مُنعت من الأذان، والإمامة، والجهر بالقراءة في الصلاة»[١]، وقال نحوَه العلامة ابن عثيمين رحمه الله، وغيرهما من العلماء.

وفيما يبدو لي أن السؤال يدور حول (الفتنة)، لذا فإن الخيط الناظم للإجابة الصحيحة يبدأ بمحاولة فَهم معنى الفتنة.

هل معناها واحد؟ أم أن لها استعمالات ومعانٍ تختلف باختلاف سياقاتها؟

-نرى طفلًا جميلًا فنستغرقُ بملاعبته ومناغاته للحدِّ الذي ننسى أنفسَنا معه فيؤذن المؤذن، ويكاد يقيم للصلاة، فيتأخر الرجل عن المسجد وهو يردد بضَعفٍ أمام طفلِه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني (٢٧٩/٧).

﴿وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

-يسلبُ أنظارنا سفحٌ أخضرَ ممتدٌ بامتداد الأفق، صُحبة هواء عليل، وسرعان ما تُتمتم: الجو فتنة!

-تجلسُ على جهازك الساعات الطِّوال، ثم تنتبه بعد مضيِّ الوقت أو تنبيه أحدهم لك، فتُسارع بالاعتذار في صورة دفاع: والله الجوال فتنة!

لا أحد يتضايق من وصفِ هذه الأشياء بكونِها (فتنةً) فعلامَ تتضايق إحدانا إن ذُكر هذا الوصفُ في ميدان آخر؟

شغلني هذا مُدةً ليست بالقصيرة، ثم وجدتُ إجابةَ هذا السؤال حين قرأتُ لأحد النابهين الذين يُحسنون إعادة ترتيب المعلومات على نحوٍ يفُكَّ مغاليقَها، أنقلُ لكم نصَّ كلامه، القليل مبناه، الكبير جدًا معناه:

«لماذا يقع التحسس من وصف المرأة بالفتنة ولا يقع هذا التحسس في المال والأولاد والدنيا؟ وكلها قد ورد في الشرع وصفها بالفتنة. أليست الفتنة هنا بمعنى: كل شيء زُيّن للناس من الشهوات، فهو فتنة بمعنى لديه قابلية قوية للتأثير على عدم قبول الحق والعمل به. فأين الإشكال في ذلك»؟

أثناء قراءتي لهذا المعنى الذي يعدل عندي الدنيا وما فيها،

شعرتُ أن قلبي يقول: وأخيرًا! وجدتُها وجدتُها!

بالضبط!

الخُلاصة التي يمكننا الخروج بها للإجابة على هذا السؤال:

أن الفتنة لها استعمالات، وهي في جوهرها: تدلُّ على القابلية القوية للتأثير، وغالبًا يكون تأثيرًا سلبيًا، لماذا؟ لأنه شيء يُبهر الإنسان فيسيطر على عقلِه بحيث لا يوازن الأمورَ بشكل صحيح، فيشتغلُ أحدُنا بالدنيا في شبابه انشغالًا فظيعًا يُقصِّر معه في واجباته، ثم يكتشفُ حين يصيرُ شيخًا طاعنًا في السن: أنه كان (مفتونًا) بدُنياه على حساب آخرته!

وعليها فقيسي، فالفتن كثيرة كثيرة، والموفَّقُ مَن رزقه الله قوةً لعدمِ التعرُّض لهذه (القابلية القوية) من أصلِها؛ لأن الوقايةَ خيرٌ، بل وأسهلُ من العلاج!

**ثالثًا**: هل ثمة احتمالاتٌ أخرى لاختيار التصفيق للنساء بدلًا من التسبيح؟

نعم، الاحتمالات كثيرة، لكن لم يُذكَر أيًا منها في الحديث، ولعلَّ ذلك لعدة أسبابٍ منها:

-كان الصحابةُ يصلُّون معًا في عهد رسول الله ﷺ، الرجال في المقدِّمة، والنساء من ورائهم، فجاء النصُّ على خيرية صفوف

الرجـال الأولـى، وخيريـة صـفوف النسـاء المتـأخرة، ولا يُمكـن لصـوت المـرأة أن يصـل للإمـام عـبر هـذه المسـافة الطويلـة، فلـو افترضْنا أن أحدًا من الرجال لم ينتبـه لخطأ الإمـام فلـم ينبِّهـه على خطئه، والمـرأةُ انتبهـتْ فصـفَّقتْ وسُـمع تصـفيقُها، وانتبـه الإمـام، فبذلك ارتفعَ الحرَجُ عن الجميع، وأدَّتِ المرأةُ دورَها.

–طبيعـةُ صـوتِ المـرأة: الضَّـعفُ، فلـيس عادتُـه أن يكـون جهوريًا، مرتفعًا، يبلغُ القاصي والدّاني، والتصفيقُ أعلـى صـوتًا بـلا مقارنة! والغرضُ هو تنبيهُ الإمام، فكـان التصـفيق أجـودُ الأدوات أداءً لهذا الغرض.

–احتمـالُ الفتنـةِ احتمـالٌ وارد، لا يمنعـه شـيء، إلا أن هـذا الاحتمـال يطـرأ عليـه كـونُ المـرأةِ ليسـت ممنوعـةً مـن الكـلام في حضرة الرجال خارج الصلاة، مما يجعل هذا الاحتمالُ قائمًا، لكنه ربما لا يكون كافيًا.

–الواقعُ يشهدُ أن من عادةِ المرأة: الحياء، و«الحياءُ كله خير» كما في الحديث الصحيح[1]، فلربَّمـا شـقَّ علـى المـرأةِ تنبيـهُ الإمـام وسط جموع المصلِّين والمصلِّيات، ووقعتْ في حرجٍ أن تُعرَف من أقاربها أو محارمها، وهـذا مُشـاهد، فـبعض النسـاء تصـلّي في وقـت عُذرها – حياءً وجهلًا – حين تكـون في مَجمـعٍ مـن النـاس رجـالًا

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧).

ونساءً، فمَن هذه حالُها كيف ترفعُ صوتَها مُنبِّهَة وسط الجموع؟ والتصفيقُ يحُلُّ كل هذه الإشكالات.

-المُلاحَظ: أن الشّارع قد عدَّ المرأة في التنبيه على الإمام، مثل الرجل، فلم يستبعِدها في الفتحِ على الإمام إن أخطأ، بل أرشدَها للتنبيه بالطريقة المناسِبة لها.

-ثمة ملمحٌ دقيقٌ جدًا! وهو أنَّ رفعَ الصوت فيه مشقةٌ وإجهادٌ على المرأة، خاصةً وأنها في الصفوف المتأخرة – كما تقدّم ذكرُه في الاحتمال الأول – والغرضُ: التنبيه، فالتفتَ الشَّارعُ إلى الأوفقِ بطبيعة المرأة (حيائِها)، والأرفقِ بها (لبُعدِها عن الإمام) بخلاف الرَّجُل، إذ أن رفعَ صوتِه لن يشكِّل أدنى مشقةٍ عليه، لقُربِه من الإمام، بينما يشقُّ على المرأة أن ترفعَ صوتَها إذ أنها في آخر الصفوف .

وعَوْدًا على مثالِنا النبويِّ: فإن أهمَّ شعيرةٍ أُمر بها المسلم بعد الشهادتين: إقامتُه الصلاة! وهي الرُّكن الذي يتوكَّأ عليه صلاحُ ما بعدَه، لذا فإن الحفاظَ على صفاء صلاة أحدِنا بأقصى ما يمكنُه رجلًا كان أو امرأة من التشويش والتشتيت - خاصةً وأن للصلاة شيطانَها المتخصص فيها – أَولى من تنبيه الإمام على سهوِه بصوتٍ مسموع، ولو كان تنبيهُه أولى من حضور قلبِك واطمئنانه بين يدي ربك، لشرَعَهُ العالِمُ بخبايانا وضعفِنا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ

وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملُك: ١٤].

* * *

## مخرج...

قد تقضي جُلَّ عمرك وأنتَ تعتقد بأنك تُدافع عن أفكارك، ثم تكتشف أنك في الحقيقة كنتَ تُدافِع عن أفكارهم التي زرعوها في عقلك!

# كَمُل من الرجال كثير

د. نورة بنت محمد العجمي[1]

تُعدُّ جائزة نوبل من أهم الجوائز المتاحة في مجالات الأدب والطب والفيزياء والكيمياء والاقتصاد والنشاط من أجل السلام. وهي مجموعة من ست جوائز دولية سنوية تمنحها عدة فئات من قبل المؤسسات السويدية والنرويجية؛ تقديراً للأكاديميين والمثقفين أو للتقدم العلمي .

وقد فاز بجائزة نوبل حتى عام ٢٠١٨م، ٢٧ مؤسسة وهيئة، و٨٤٤ رجلا، و٤٩ امرأة[2].

أي أن نسبة النساء إلى الرجال ٥٪ .

ولافتٌ جدًا نسبة النساء في الجوائز! والتساؤل الحاضر في ذهن كلِّ مُتابع: هل اعترض أحدٌ على هذه النسبة؟ هل اتُّهمت الجائزة بانتقاص المرأة؟ هل الجائزة مُنحازة للرجال؟

من زاويةٍ أهمّ، وأكثر التصاقًا بما أودُّ قولَه: أين الطاعنون في السُّنة – الذين يزعمون باطلاً أنها جاءت تنتقص المرأة – عن التصدي لمثل هذه الجائزة العالمية المعاصرة؟

---

(١) عضو هيئة تدريس ـ قسم التفسير والحديث ـ كلية الشريعة ـ جامعة الكويت.

(٢) https://ar.wikipedia.org/wiki/جائزة_نوبل

العقلُ المُنصِف في التعامل مع نتائج هذه الجائزة، يُدرك أن نسبة فوز النساء إلى نسبة فوز الرجال ليست إلا محاكاةً للواقع البشري الذي نعيشه.

ألم يخبر النبي ﷺ عن الأمم السابقة بمثل هذه النتيجة حين قال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا: آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[(١)].

لكن السؤالَ الأبرز ها هُنا: لماذا الكمالُ في الرجال أكثرُ من الكمال في النساء؟

أعتقدُ أن الحديث يترجم واقعًا نشاهده ونعيشه، فلو نظرنا لنسبة الناجحين من الرجال إلى الناجحات من النساء، كالعلماء، والأطباء، والسياسيين، والمفكرين، وأساتذة الجامعات، فإنَّا سنجد الغلبة والكثرة للرجال، حسنًا... وأين النساءُ إذن؟

لولا اللهُ ثم هذه الأمُّ العظيمة، والأختُ الدّاعمة، والزوجةُ الصابرة، اللاتي يهيِّئن المكان والجوَّ الهادئ للرجل لـمَا برع أحد! ولا حتى مُخترع جائزة نوبل نفسَه! ولا يُخالِف في هذا عاقل، تضحية المرأة لتكميل مَن حولها سواء كان ابنًا أو زوجًا، حقيقةٌ أوضحُ من الشمس في رابعة النهار! لذلك يعترف كلُّ الناس أن:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٤٣١).

«وراء كل رجل عظيم امرأة»، إذ المرأةُ تبذل نفسها وحياتَهَا خدمةً لمَن حولها. بل قد يكون وصول بعض الرجال للكمال أمارة لكمال مَن خلفهم من النساء كما قال ابن كثير معقبا على الحديث: «لفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية... فإن كلا منهما كفلت نبيـًا في حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله»[1].

وقبل بيان معاني ألفاظ الحديث، وشرحه، لا بد من التنويه على أن الأصل في الإسلام تساوي الرجل والمرأة في التكريم والجزاء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ **مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ** فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤)} [النساء: ١٢٤]. وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ **كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالله عز وجل فضل بني آدم -وهم ذريته ذكورا وإناثا- على كثير ممَّن خلق، ثم فضّل الرجال على النساء تفضيلا يقابله تكليف، بما يوافق الفروق الخَلْقية بين الذكر والأنثى، ومن هذا

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٢/٦١).

التفضيل ما يفسره سياق الآيات في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢] وقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وبالنظر في سبب نزول آية التفضيل – وهو أن النساء تكلمن في تفضيل الله الرجال عليهن في الميراث – ذكر تعالى في هذه الآية أنه إنما فضل الرجال على النساء في الميراث؛ لأن الرجال قوامون على النساء، فإنهما وإن اشتركا في استمتاع كل واحد منهما بالآخر، أمر الله الرجال أن يدفعوا إليهن المَهر، وينفقوا عليهن، فصارت الزيادة من أحد الجانبين مقابلة بالزيادة من الجانب الآخر، فكأنه لا فضل البتة. كما أن فضل الرجال على النساء حاصل من وجوه كثيرة، بعضها صفات حقيقية، وبعضها أحكام شرعية، فمن الأحكام الشرعية: اختصاصهم بالنبوة، والرسالة، والولايات، ومن العبادات: الجهاد والجُمَع، والجماعات، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات؛ بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال دون النساء، ومن الصفات الحقيقية ما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجلد [1].

---

(١) ينظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (ص: ٦٩)، تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٠)، تفسير الرازي (١٠/ ٧٠)، تفسير السعدي (ص: ١٧٧).

وأما حديث: «كمل من الرجال كثير...» فقد وُضع على طاولة النقاش، وأورد عليه عدة تساؤلات، واستشكالات:

**- أولها: ما المراد بالكمال في الحديث؟**

لا شك أن معرفة معنى أي كلمة ابتداء يقتضي النظر في لغة العرب وماذا تعني في قواميسهم، ومعنى الكمال: التمام، والتمامُ تطلق على ما يتجزأ إلى أجزاء[1]. فلكلِّ شيئ كمال ومنتهى يقف عنده.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: الشهادات العلمية؛ فلكل مرحلة من المراحل الدراسية مستوى تنتهي عنده، ولا يزال طالب العلم يترقى في هذه المراحل والمستويات حتى يتوقف عند الأستاذية، ولا يوجد رتبة علمية فوقها، وكذلك في باقي المجالات فلكل مجال حدٌ تقف عنده يكون به التمام. والكمال أيضا درجات ومراتب، فالامتياز أعلى تقدير، ومن حازه فقد فاز بالكمال، ومع ذلك فهذا الكمال درجات أيضا، منه ٩٠ - ٩٥ -١٠٠.

وبالنظر للحديث نجد إنصاف النبي ﷺ ودقة لفظه، حين فَصَلَ كمال الرجال، عن كمال النساء، فلم يجعلهما في ميزان واحد، إيذانا بأن للرجال كمالاً يختلف عن كمال النساء، فما يُعدُّ كمالًا في المرأة، ليس بالضرورة أن يكون كذلك في حقِّ الرجل، ومهما قيل في الكمال فالمقصودُ به كمالٌ بشري محدود.

---

(١) ينظر: تاج العروس، الزبيدي (٣٠/٣٥٢-٣٥٣).

وقد ذكر العلماء عدة مراتب للكمال منها:

١- النبوة: وهي أعلى مراتب الكمال، وهذه المرتبة يتفاضل فيها الأنبياء فيما بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وهي مرتبة خاصة بالرجال لا يشاركهن النساء فيها، لما تقدم من اختصاص الرجال ببعض الأحكام الشرعية.

٢- الصِّدِّيقيَّة: وهي كمال العلم والعمل، وأثبتها الله عز وجل لمريم عليها السلام كما في قوله تعالى: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ} [المائدة: ٧٥]، والصديقية هي المرتبة الثانية بعد النبوة، وهي مما يشترك فيه الرجال والنساء.

٣- الشهادة في سبيل الله تعالى.

٤- الولاية.

٥- الأخلاق.

والمراتب الأربع الأولى ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]»[١].

---

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٨٠/١)، الإتقان في علوم القرآن (١٤٠/٤)، تفسير السعدي ص٨٧٤.

**- ثانيها: لماذا جاء كمال الرجال في الحديث فعلا ماضيا (كَمُلَ)، وجاء كمال النساء بالفعل المضارع (يَكْمُل)؟**

جاء الكمال في الحديث بدلالة الماضي في موضعيه للرجال والنساء مع اختلاف الصيغة.

- كيف؟

= **الأولى:** الفعل الماضي في «كَمُلَ من الرجال كثير»، وهذه واضحة لا إشكال فيها.

= **والثانية:** (لم يَكْمُل)، صحيح أن (يكمل) فعل مضارع، لكنه إذا سبق بـ (لم) أصبح معناه ماضيا، لذلك يقول أهل النحو أن (لم) تقلب زمن الفعل من المضارع إلى الماضي.

لذلك عندما تسأل أحدهم: هل سافرت في الإجازة؟ وسافر فعل ماضٍ.

يجيبك: لا، لم أسافر؟ وأسافر فعل مضارع، لكن (لم) جعلت المعنى جوابًا عن حدثٍ حصل في الزمن الماضي.

فأصبح الحديث كله إخبارا عن الماضي، ونصَّ شُراح الحديث على أنه إخبار عن الأمم السابقة.

ومعنى «كَمُلَ من الرجال كثير»، «أي: كثيرون من أفراد هذا الجنس حتى صاروا رسلاً وأنبياء وخلفاء وعلماء وأولياء»[1].

---

(١) مرقاة المفاتيح (٣٦٥٨/٩).

أما قوله: «ولم يكمل من النساء إلَّا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون»، فهذا أسلوب حصر، والمعنى: لم يكمل من النساء إلا قليل منهن، وهذا القليل محصور في مريم وآسية في زمانهما، والمراد ببلوغهما الكمال أي النهاية في جميع الفضائل التي للنساء.

**- وهنا وردني سؤال: هل يعني أسلوب الحصر الذي ذُكر معه كمال مريم وامرأة فرعون أنه لا يكمل غيرهن؟**

بالطبع لا، لأنه كما تقدم أن الحديث عن الأمم السابقة، ولا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة رضي الله عنهما، **فخديجة** خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة، وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها، وأما **فاطمة** رضي الله عنها **بنت رسول الله** ﷺ فإنها خُصت بمزيد فضيلة على أخواتها، لأنها أصيبت بوفاة رسول الله ﷺ، وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ، وأما **عائشة** رضي الله عنها فإنه لا يُعرف في سائر النساء من هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم[1].

وهنا فرصة لمَن أرادت أن تلتحق بركب الكاملات من النساء، إذا عرفت ما تميزت به "مريم بنت عمران"، و"آسية بنت مزاحم" وغيرهما من النساء اللاتي جاءت السُّنة بذكر مناقبهن وفضلهن.

(١) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢/٦١)، الكواكب الدراري، الكرماني (١٤/٤٢)، تحفة الأحوذي، المباركفوري (٥/٤٥٩)، الرسل والرسالات، الأشقر ص٨٨.

**- أما الجملة الأخيرة من الحديث وهي قوله ﷺ: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»:**

فقد يشكل معناها على مَن لا يُحسن فهم أساليب العرب، والتي منها أسلوب (التشبيه)، حيث شبَّه النبي ﷺ فضل عائشة رضي الله عنها، بفضلِ الثريد على سائر الطعام، ومعنى الفضل في اللغة كثرة المحاسن والفضائل[1]، وكتب السُّنة والسيرة تزخر بمناقب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ومما يُذكر لها أن النبي ﷺ توفي عنها وهي في الثامنة عشر من عمرها، وهذا الفضل والمدح لها وهي دون الثامنة عشر، وهذه لفتياتنا يتأمّلنها جيدًا: أن فضل المرأة المسلمة، لا يُحصر في عمر، بل يُذكر ويُشكَر أيًّا كان عمرها، وهذا دليل على أن المرأة قد تكون مؤثرةً وهي في عمر صغير!

والموفَّقةُ من سَعت لتكميل نفسها، وتكميل غيرها، والتشبُّه بالكاملات: كمال!

فهذه مريم بنت عمران قد حازت الكمال في العبادة، و"مريم" اسم غير عربي، ومعناه بالعربية: العابدة، وآسية بنت مزاحم رمزُ الثبات على الدين، وخديجة بنت خويلد مُسانِدة الدعوة والزوج الرؤوم، وفاطمة رمزُ الصبر عند فقد الأحبَّة، وأسماء بنت أبي بكر ودورها في ابتداء الهجرة، وأمُّ عمارة وجهادُها في غزوة أحد، وأمُّ

---

(١) ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد (٢/٩٠٧)، تحفة الأحوذي (١٠/٢٦١).

طلحة وموقفُها حين توفي ابنها، وأمُّ سلمة وحكمتُها في صلح الحديبية، وكثيرٌ كثير.. إن اقتربتْ إحدانا من سِيرَهنّ، وتأملتْ دقائق كمالاتهنّ، فإنها حَرِيَّةٌ بإصابةِ الكمال، وإن لم تُصبه: اقتربتْ منه، أو كادتْ.

* * *

**مخرج...**

الإنسانُ القادر على رؤيةِ الجمال:

يستحيل أن يَشيخ !

# نُنهى أن نحُدَّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج

سميحة بنت عبدالله الحمادي[١]

كنا في الجامعة، ولتوِّ الأستاذة قد غادرتْنا بعد انتهاء محاضرتها، والمحاضرة التي بعدَها قد جاءنا بُشرى إلغائها منذ أول الصباح، فقد كان الجوُّ -وقتها- حارًا في الخارج، فاقترحتْ إحدانا تناول كوبٍ من العصير البارد في كافتيريا الكلية، فوجدنا هناك زميلاتٍ لنا من تخصص آخر.

-أليس لديكن محاضرة اليوم؟

=بلى، ولكنَّ أستاذة المادة لم تحضر لوفاة زوجها، ولا نتوقع أن تكمل معنا هذا الفصل الدراسي؛ لأنها ستعتدّ .

قالت إحداهن: بل ستكمل معنا وإلا ستنهي الجامعة عقدها.

فقيل لها: إن خروجها للعمل للحاجة ولا شيء في ذلك .

وإذا بطالبة تقول: لماذا تعتدّ ولها بضعة أشهر في بلدنا بعيدة عن زوجها، بالإضافة إلى ذلك فهي يائسة -انقطع عنها الحيض بسبب الكبر- والغرض من العِدة معرفة براءة الرحم من عدمه؟ وإن افترضنا أنها مازالت في مرحلة تستطيع الحمل، فالتكنولوجيا

---

(١) باحثة دكتوراه في الحديث وعلومه - جامعة أم القرى.

أراحتنا من فترة الانتظار؛ لأنها تستطيع معرفة براءة رحمها في دقائق .

وإذا بأخرى تقول: ولماذا المرأة تعتدُّ فقط، فلو كان زوجها بوضعها ما اعتدَّ، ولتزوج بأخرى مباشرةً! وما أرى ذلك إلا انتقاصًا لنا، وتعنتًا وظلمًا وإطالةً لمدة الحزن على المرأة!

ردَّت إحدانا: الحزن لا علاقة له بالعدة والحداد الذي فرضه الله على المرأة، بل هو من طبائع النفس البشرية؛ فهي تتفاعل مع المصائب والآلام التي تواجهها، والامتثال لما أمرنا الله به عند وقوع المصائب يخفف علينا وقعها، فالحداد ليس تكريسًا للحزن، والإسلام ضد الحزن؛ لأنه لا يأتي بخير ولا مصلحة فيه للقلب، وأحب شيء إلى الشيطان أن يُحزن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه، ولم يأتِ في القران إلا منهيًا عنه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران:١٣٩] وَقَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠] وقد استعاذ النبي ﷺ منه فَقَال: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ»**[١].

والإسلام لم يترك شيئًا إلا بيَّنه، فكل شيء يسير وفق قواعد منضبطة في الحزن والفرح، والضيق والشدة، وبيَّنَ تعالى العدة في كتابه العزيز فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ

---

(١) مدارج السالكين، ابن القيم (١/٥٠٠-٥٠١).

بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٣٤].

أي إذا مات الزوج وترك زوجَه في عصمته تنتظر أربعة أشهر وعشرًا دون نكاح جديد.

ينتظرن: فالانتظار قد يصاحبه صبر وتأنٍّ وتمهل وترقب، ولعل في كل انتظار أملًا جميلًا لغد أجمل.

وقد جاءت السنة النبوية مُبيِّنةً كيفية الانتظار، كما بينت كثيرًا من الأحكام مثل: الصلاة والزكاة والحج، فعَنْ أُمِّ عَطِيَّة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: «كُنَّا نُنْهَى أَنْ نُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلاَثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَلاَ نَكْتَحِلَ وَلاَ نَتَطَيَّبَ وَلاَ نَلْبَسَ ثَوْبًا مَصْبُوغًا، إِلَّا ثَوْبَ عَصْبٍ[1]، وَقَدْ رُخِّصَ لَنَا عِنْدَ الطُّهْرِ إِذَا اغْتَسَلَتْ إِحْدَانَا مِنْ مَحِيضِهَا فِي نُبْذَةٍ مِنْ كُسْتِ أَظْفَارٍ[2]، وَكُنَّا نُنْهَى عَنِ اتِّبَاعِ الجَنَائِزِ»[3].

---

(١) العَصْب: بُرودٌ يَمنيَّة يُعْصَب غَزْلها: أَيْ يُجْمَع ويُشدّ ثُمَّ يُصْبَغُ ويُنْسجُ فَيَأْتِي مَوشِياً لِبقَاءِ مَا عُصِبَ مِنْهُ أبيضَ لَمْ يأخُذْه صبغ، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (٣/ ٢٤٥)، ولعله في الوقت الحاضر ما يُلبس في المناسبات، وما يُعد عرفًا أنه زينة.

(٢) هُوَ القُسْط الهِندي، عَقَّار مَعْروف، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (٤/ ١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٤١).

وقد اشتمل الحديث النبوي على أمور اختصت بها المرأة، ألخصها لَكُنَّ :

تخصيص النساء بالإحداد دون الرجال، وتحديد مدة إحداد المرأة على أقاربها بثلاثة أيام، وإحدادها على زوجها أربعة أشهر وعشرًا، وطبيعة الإحداد وكيفيته.

لكنِّي أسألكن: إذا تقدم رجل لخطبتك وحدّد موعد الزواج بعد سنة أو سنتين حتى يتم الاستعداد للزواج -بنظرك-هل انتظارك هذه المدة أمر طبيعي؟ أم تعنّت وانتقاص من قدرك؟

أعتقد أن الإجابة: أن هذا أمر طبيعي وستنتظرينه بشوق ولهفة.

وإذا كان هناك موظفة وقالت مديرتها في العمل أنها ستُقَيِّم الموظفات بعد خمسة أشهر، وعليه ستُمنح الترقيات والعلاوات، هل سيكون لديها اعتراض على تحديد هذه المدة؟

ستنتظر وسيصاحب هذا الانتظار الجد في العمل، والحرص على المداومة بشوق يحدوه أمل الفوز برضا المديرة عن أدائها؛ لتنال الترقية .

وإذا أصيبت إحدانا بمرض في عضوٍ ما، وقال لها الطبيب: احرصي على عدم وصول الماء إلى هذا العضو مدة من الزمن حتى تتعافي، هل ستقبل كلامه وتنفذه أم تتجاهله؟

لا أشـك أنهـا سـتقبل كلامـه برحابـةِ صـدر؛ لأنهـا تثـق بعلمـه وبعواقب ما حذرها منه؛ ولأنها تريد أن تتعافى، لذا ستنتظر وتمتنع.

تفضلي مثالًا آخر أقرب لطبيعة مرحلتنا: حاليًا، أنت طالبة في الجامعة، ونظام الدراسة فيها أربع سنوات، في كل فصل دراسي مجموعـة مـن المقـررات، لكـل مقـرر فصـلٌ دراسـي واحـد، وباستطاعتك دراسته بأسبوع أو أكثر لاجتيازِه، هل تعدُّ هذه المدة طويلة والانتظار مملًا؟ وعليه؛ فالجامعة إذًا مجحفة بنظامها؟ ويعـدُّ هـذا انتقاصًـا مـن قـدراتك العقليـة! والواجـبُ عليـك أن تعترضي عليهم!

أجابتني صاحبتي باندفاع: لا بالطبع! لابد من الانتظار ليتحقق هدفي، ولا يعدُّ هذا انتقاصًا من قدراتي؛ لأن الجامعة لها استراتيجية معينة وأهداف تريد تحقيقها من وضع هذا البرنامج بهذه الكيفية، منها: تأهيل الطالبة لتكون ذات كفاءة عالية، فالغرض هو مصلحة الطالبة.

–جميل، إذًا نحن نقبل قوانين البشر وأنظمتهم ونصائحهم في كل المؤسسات، على الرغم من القصور الذي قد يعتري ذلك، لغرض الفوز بملذات الدنيا، ولا نرى في ذلك انتقاصًا لنا، فلماذا نرى أن أمر الله تعالى للمرأة بالانتظار أربعة أشهر وعشرًا بعد وفاة زوجها انتقاصًا! ونعترض على حكمه تعالى وهو جلَّ شأنه فوق

كل شيء، وعالم بكل شيء، عالم بعاقبة أمرنا، وبما يناسبنا، وبما فيه خير لنا، وما منشأ ذلك إلا قصورٌ أو سوء تصور في مفاهيمنا.

فالله تعالى خلقنا لنعبده ونطيعه ونخضع لأوامره ونواهيه طواعية دون اعتراض، وكلُّ أحكامه سبحانه هدفُها: تحقيق الاستسلام لله عز وجل والانقياد لشرعه، وذلك في كل شيء، أما الحِكَم الفردية أو التفصيلية للأحكام الشرعية فإنها تختلف من حِكم لأخرى ظهورًا وخفاءً، فلا يوجد حُكم إلا وله حِكمة قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] وقد تتبيّن هذه الحِكم للعالم وقد لا تتبيّن، فقد يجتهد العالم في استنباطها فيصيب وقد يخطئ .

والناس في هذا ثلاثة أصناف:

**الأول**: ينفذ أوامر الله تعالى تعبدًا وخضوعًا واستسلامًا دون السؤال لماذا؟ وكيف؟

**الثاني**: يبحث عن حكمة الله في بعض أفعاله، وأحكامه وأوامره، على وجه الفهم والاستزادة في العلم، فيكون سببًا في زيادة إيمانه ويقينه وتسليمه.

**الثالث**: قد يكون في إيمانه خلل أو نقص أو ضعف، فتجده يبحث ويسأل عن الحكمة من الأحكام الشرعية على وجه

الاعـتراض، فـإن ظهـرت لـه الحكمـة واقتنـع بهـا عمـل بـالحكم الشرعي ورضي به، وإن خفيت شكَّ واضطرب، وقد يـترك العمـل بالحكم الشرعي؛ لأن الحكمة من فرضِـه لـم تظهـر لـه! وهنـا يـدق ناقوس الخطر؛ ففي حالته هـذه انعـدم الاستسـلام والانقيـاد لله عـز وجل، والرضا بما قدره له وفرضه عليه؛ لأن معرفة الحكمة في كـل شيء متعـذر علـى الإنسـان حتـى في حياتـه الماديـة اليوميـة، فهنـاك أمور كثيرة تحدث في حياتنا اليومية، وفي عملنا قد لا ندرك الحكمة من حدوثها، وحتى نعلم الحكمـة مـن كـل الأشـياء لابـد أن نحـيط علمًا بكل شيء وهذا لا يكون إلا لله تعالى.

والله تعالى لـم يقـدر الأحكـام إلا لأنـه أحـاط بكـل شـيء علمًـا -سـبحانه- فالتقـدير لابـد أن يكـون منه علـى علـم، وعـدم علمنـا بالحكمة لا يعني عدمها، بمعنى إذا لم نعلـم الحكمـة لا يعنـي هـذا أنها ليست موجودة، فمثلًا في الأجهزة مواصفات لا نعلـم الحكمـة من ورائها، فهنـاك منافذُ في جهـاز الآيفـون لا نعلـم الحكمـة منهـا، لكن هـذا لا يعني أنهـا بـدون فائـدة، المختصـون -فقـط- يعلمـون الحكمة منها.

وبعض الأحكام تعبدية محضـة؛ لا نعلـم الحكمـة منهـا، يختـبر الله تعالى بها مدى استسلام العبد وانقياده لله تعالى، كمـا حـدث في بنود صلح الحديبية بعد استسلام الصـحابة ونجـاحهم في الاختبـار

بانت لهم حكمة هذه البنود، وكيف انقلبت لصالح المسلمين، فلا يُتوقف في العمل بأحكام الله لمعرفة الحكمة منها، فلو كان المسلم هكذا فهو لا يعبد الله بل يعبد رأيه وهواه، فالواجب على العبد تمام الانقياد والاستسلام لأمر الله تعالى في كل أوامره ونواهيه؛ لأن ذلك هو الغاية، ظهرت له الحكمة من الحكم الشرعي أم لم تظهر، وحداد المرأة على زوجها المتوفى أحد هذه الأحكام، فتستجيب لأمر الله عن رضا وقناعة وعبودية خالصة مثله مثل الصلاة والصيام، أما الحِكم التي تستنبط من هذا الحكم فهي اجتهادية؛ والله هو العليم بما فرض علينا، وعلينا التسليم.

-جميل، أقنعتِني بتسلسلٍ منطقيٍ لا أملكُ إلا التسليمَ له، وبودِّي لو نُكمل، تعرفين أن اعتراضاتي لا تنتهي، لكن بعد عشر دقائق تحينُ محاضرتي لأستاذتنا التي تُحاسب على تأخر الدقيقة والدقيقتين**!**

ودَّعتُها ولم تودِّعني حيرتي وتساؤلي؛ زميلتُنا هذه اعترضتْ في حضرة متخصصات، تُرى! هل ثمةَ أُخريات يفكرن هكذا، ويُفسرن أحكام الشرع على هذا النحو؟

الحقيقةُ أني لا أستبعد، لكني لا أضمن لقاءهن، ودار في ذهني احتمالاتٌ أخرى للإحداد، غير ما ذكرتُ لزميلتي تلك، حين كانت على عجلةٍ من أمرِها.

مما خطر في بالي، هذه الأسئلة:

١. لماذا خُصت النساء بالإحداد دون الرجال؟

جاء القرآنُ والسنة بتخصيص ذلك، ففي السُنَّة مثلًا: خُصت المرأة بالحداد دون الرجل، فتحد على زوجها وعلى أقاربها كما مر بنا من قوله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، تُحد على ميتٍ فوق ثلاثٍ إلا على زوجٍ أربعة أشهرٍ وعشرًا».

ولم يُعلم أن الرجل حد على ميت، فالنبي ﷺ هو القدوة والمثل الأعلى في التأسِّي، وقد ماتت في حياته زوجته خديجة رضي الله عنها، وأولاده، وبناته، وأعمامه، وصحابته رضي الله عنهم أجمعين، ولم يحدّ على أحدٍ منهم .

وربما، أقول ربما أن السبب في ذلك، أن :

- المرأة إنسان جميل، فلما تحدّ تترك شيئًا من طبيعتها كالتجمل، أما الرجل لو افترضنا عليه حدادًا فماذا عساه أن يترك؟ قد يقول قائل: يطيل شعره وأظفاره ويترك التطيب والتجمل، أقول هذه من سنن الفطرة إن تركها خالف سنة النبي ﷺ، وبعض الرجال فعليًا يترك بعض المسؤوليات لأجل الحزن، لا من باب الشريعة، والشريعة لم تمنعه من ذلك، والمرأة تترك التجمل؛ لأنه مدعاةٌ لنكاحها.

-الرجل هو المعيل لأسرته لذا لا يحدُّ، وقد يكون متزوجًا بأكثر من واحدة فكيف سيكون حداده؟ هل يهجر نساءه ويعتزلهن!

-الرجل عقد النكاح بيده متى شاء تزوج، ومتى لم يشأ لم يتزوج، لكن المرأة قد يعضِلها وليها عن الزواج بعد وفاة زوجها دون مراعاة لمشاعرها، لذلك جعل الله هذه المدة فرضًا لا يستطيع أحد أن يتجاوزها.

بالإضافة إلى أن الرجل حاجته للمرأة أكثر من حاجة المرأة له، فقد تصبر لحيائها ووداعتها، بينما الرجل لا يستطيع الصبر .

-المرأة هي من تدبّر شؤون بيتها وزوجها وأطفالها، فإذا ماتت لا يستطيع الزوج أن يدبر أموره بنفسه، فكيف إذا كان لديه أطفال؟ غالبًا – كما تدلّ الحياةُ – لا يستغني عن الزواج من أخرى تراعيه وأطفاله.

-المرأة عاطفية أكثر من الرجل تتأثر بشدة بالحزن والفرح لذلك راعى الله تعالى هذا الجانب فيها، لتسكن نفسها وتلمَّ شعثها.

-تعبّد المرأة لله في الحداد اختبار لمدى تسليمها لأمره، ولسائل أن يسأل: طيب والرجل؟

نعـم! حتـى الرجـل! لـه أحكـام يتعبـدُ الله بهـا دون المـرأة مثـل تحـريم لـبس المخيط للمحـرم، في حين إباحتـه للمُحرِمـة، وحُـرم عليه كذلك لبس الحرير والذهب في حين أنه جائزٌ للمرأة، وكلٌّ لـه عُبوديته.

٢. المـرأة في الجاهليـة كانـت تحـدُّ سَـنة، وفي الإسـلام أربعـة أشهرٍ وعشرًا، هل هذا انتقاصٌ لها؟

قالت زينب بنت أبي سلمة: سمعت أم سلمة، تقـول: جـاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن ابنتي تـوفي عنهـا زوجها، وقد اشتكت عينها، أفتكحلهـا؟ فقـال رسـول الله ﷺ: (لا) مرتين أو ثلاثـًا، كل ذلك يقول: (لا) ثم قال رسول الله ﷺ: «إنمـا هـي أربعـة أشـهر وعشـر، وقـد كانـت إحـداكن في الجاهليـة ترمـي بالبعرة على رأس الحول»[١].

قال حميد: فقلت لزينب، وما ترمي بالبعرة على رأس الحـول؟ فقالت زينب: «كانت المرأة إذا توفي عنها زوجهـا، دخلـت حفشًـا، ولبست شر ثيابها، ولـم تمس طيبًا حتى تمر بها سَنة، ثم تؤتى بدابة، حمار أو شاة أو طائر، فتفتض به، فقلما تفتض بشيء إلا مـات، ثـم تخرج فتعطى بعرة، فترمي، ثم تراجع بعـد مـا شـاءت مـن طيـب أو

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٣٦).

غيره» سُئل مالك ما تفتض به؟ قال: «تمسح به جلدها»[1].

### الفرق بين حداد الجاهلية والإسلام:

لقد بيّن النبي ﷺ في الحديث السابق حداد المرأة في الجاهلية وما كان يقع عليها من الظلم والامتهان، فكانت إذا مات زوجها دخلت إلى البيت الصغير الرديء تلبس شر ثيابها ولا يمس جسدها ماء أو طيب، ولا تقلم ظفرًا، ولا تمشط شعرًا، وتجلس فيه حولًا كاملًا منبوذة، تُحرم من ملذات الحياة كلها، وتخرج بعدها بأقبح منظر، فتتمسح بطير أو دابة، ولا يكاد يعيش بعدها.

فجاء الإسلام ورفع الظلم والامتهان الواقع عليها، ورفع من شأنها وكرَّمها، و كان في بداية الإسلام عدة المرأة حولاً كاملاً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٠] ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤] وهي متقدمة في التلاوة، لكن الأكثرون على أنها ناسخة لها[2]، فصار حداد المرأة أربعة أشهر وعشرًا .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٣٧).

(٢) يُنظر: تفسير ابن كثير (١/ ٦٥٨)، فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين (٦/ ١٣٧-١٣٨).

**طبيعة حداد المرأة وكيفيته:**

**أولاً:** تنتظر المرأة المعتدة أربعة أشهر وعشرًا دون نكاح جديد.

**ثانيًا:** تمارس المُعتدة جميع شؤون حياتها، فتغتسل، وتمتشط، وتلبس ثيابها، وتقلم أظافرها، وتكلم الآخرين، وتقابلهم، وتجتنب ما يلي:

١ . تجتنب كل لباس مُعَدّ للزينة من أي نوع كان: فتلبس الملابس المعتادة التي ليست للزينة والتجمل، بأي لون كان سواءً كان أحمر أو أسود أو أصفر[(١)]، ولعله ما يُلبس في المناسبات والأعياد والأفراح [(٢)]، والعرف يختلف في تقدير الزينة من هذه الملابس.

٢ . تجتنب الطيب بجميع أنواعه [(٣)]؛ إلا شيئًا من البخور عند غسلها من الحيض، وأدخل البعض الصابون والشامبو لأنه من جملة الأطياب، وقيل بعدم دخولهما، وقيل إن تركته فهو أولى[(٤)].

أما الأدهان غير المُطيبة فلا بأس بها للمُعتدَّة، وأما ما يُتخذ منها للزينة فإنها تُمنع منه؛ لأنها ممنوعة من الزينة في إحدادها[(١)].

(١) فتاوى اللجنة الدائمة (٢٠/ ٤٥٣)، فتاوى نور على الدرب، ابن عثيمين (١٩/ ٢).
(٢) زاد المعاد، ابن القيم (٥/ ٦٢٨).
(٣) زاد المعاد (٥/ ٦٢٣).
(٤) فتاوى اللجنة الدائمة - ١ (٢٠/ ٤٥٣)، مجموع فتاوى ابن باز (٢٢/ ١٨٧)، فتاوى نور على الدرب، ابن عثيمين (١٩/ ٢).

**شرب القهوة إذا خالطها الزعفران:**

قيل إذا كانت رائحته باقية لا يجوز أن تشربها، وإذا زالت ريحها بطبخها فلا حرج عليها[٢].

٣. تتجنب جميع التجميلات في جسدها، وحتى كحل العينين تجتنبه؛ لأنه تجميلٌ للعين، وأما القطرة التي تحتاج إليها لوجع في عينها ولا يكون فيها تجميل العين فلا بأس بها، ويجوز لها أن تدهن رأسها بما ليس فيه طيب[٣].

وإن اضطرت إلى الكحل بالإثمد تداويًا لا زينة فلها أن تكتحل به ليلاً وتمسحه نهارًا[٤].

٤. تجتنب لباس الحلي بأنواعه[٥].

**ثالثًا:** تمكث المعتدة في بيت زوجها المتوفى أربعة أشهر وعشرًا ولا تخرج منه إلا لحاجة، وهذا من سماحة الدين فهو لم يأتِ ليصادم حاجات البشر، وقد وردت النصوص بجواز خروجها لحاجتها نهارًا وللضرورة ليلاً، وألا تبيت إلا في بيتها، وهذا في سائر المذاهب الأربعة[٦].

---

(١) أحكام الإحداد في الإسلام (٦٢-٦٣).
(٢) فتاوى نور على الدرب، ابن عثيمين (١٩/ ٢).
(٣) فتاوى نور على الدرب، ابن عثيمين (١٩/ ٢).
(٤) زاد المعاد، ابن القيم (٥/ ٦٢٤-٦٢٥).
(٥) فتاوى نور على الدرب، ابن عثيمين (١٩/ ٢).
(٦) يُنظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني (٣/ ٢٠٥)، وتبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، الزيلعي، وحاشية الشلبي (٣/ ٣٧)، والمدونة، مالك (٢/ ٤٢)، والمعونة على مذهب عالم المدينة، عبدالوهاب البغدادي (٢/ ٩٣١)،

أما في وقتنا الحاضر فقد تحتاج المُعتدة إلى الخروج للعمل وللدراسة، وللمستشفى وللسوق، ولمراجعة الدوائر الحكومية ولزيارة والديها أو أحد أقاربها إن مرض، وللتّنفيس عن النفس إن ضاقت، والاستئناس عند جارتها وغير ذلك، فاستثنى الفقهاء خروجها لذلك نهارًا إلا ما اقتضت الضرورة لخروجها ليلاً، فخروجها للضرورة جائز ليلاً ونهارًا، وأما لغير الضرورة فلا يجوز كالعمرة والنزهة وغير ذلك[1].

وقد قسّم الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- خروج المُعتدة لثلاث حالات:

**الحالة الأولى**: إذا كان لغير ضرورة ولا حاجة، فإنه لا يجوز، كخروجها للنزهة أو العمرة.

**الحالة الثانية**: أن يكون الخروج من البيت للضرورة، فهذا جائز ليلاً ونهارًا، مثل خشيتها على نفسها من سقوط البيت، أو اشتعال النار، أو غير ذلك، وعليها العودة إليه بمجرد ذهاب السبب.

**الحالة الثالثة**: أن يكون لحاجة، مثل خروجها لشراء الطعام

---

الحاوي الكبير، الماوردي (١١/ ٢٧٢)، والمجموع شرح المهذب، النووي (١٨/ ١٧٥)، ومسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني (ص: ٢٥٣)، شرح الزركشي على مختصر الخرقي (٥/ ٥٧٢).

(١) ينظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، ابن عثيمين (١٣/ ٤١٢)، مجموع فتاوى ابن باز (٢٢/ ١٩٧-٢٠٢).

والشراب، وللتدريس، وللدراسة، نهارًا لا ليلاً، وإذا ضاق صدرها تخرج إلى جارتها لتستأنس نهارًا؛ لأن أزمة ضيق الصدر قد تتطور إلى مرض نفسي، ولزيارة أبيها وأمها أو أحد من أقاربها إن مرض نهارًا لا ليلاً؛ ووجه التفريق بين الليل والنهار أن الناس في النهار في الخارج والأمن عليها أكثر، وبالليل الناس مختفون والخوف عليها أشد[1].

كما أجاز الشيخ ابن باز رحمه الله للموظفة خروجها: «إن اضطرت لعملها ليلاً إذا خشيت فصلها من عملها، وقد ذكر العلماء أسبابًا كثيرة في جواز خروجها من منزل زوجها الذي وجب أن تعتد فيه، بعضها أسهل من خروجها للعمل إذا كانت مضطرة إلى ذلك العمل، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله ﷺ: وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم[2]»[3].

هذا ما تجتنبه المُعتدة، أما ما نسمع عنه حاليًّا عن عادات وتقاليد بعض الدول، أو بعض المناطق من منعها من النظر للتلفاز، والرد على الهاتف، وألا ترى نفسها بالمرآة، ولا تغسل ثيابها إلا في يوم محدد، والاقتصار على لبس السواد أو البياض، فالشريعة من

---

(١) الشرح الممتع على زاد المستقنع، ابن عثيمين (١٣/ ٤١٢).
(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨).
(٣) مجموع فتاوى ابن باز (٢٢/ ١٩٧-٢٠٢).

ذلك براء.

والحداد موجود منذ القدم، فالقانون الروماني حدّد العدة بعشرة أشهر للأرملة والمُطلقة، ثم امتدت إلى سَنة، والقانون الفرنسي حددّها بثلاثمائة يوم للأرملة والمُطلقة، وتنتهي العدة بوضع الحامل، وفي العهد الحديث تجلس الأرملة عشرة أشهر إلى سَنة، وإن تزوجت أثناء العدة مُنعت من الإرث والوصية، وعدة المُطلقة والأرملة عند الروم الأرثوذكس في لبنان أربعة أشهر، وتنتهي بوضع الحمل، وفي اليهودية عدة المُطلقة والأرملة ثلاثة أشهر، والحامل تعتد فلا يجوز العقد عليها قبل الوضع، وتتربص سنتين إذا كانت مُرضعة لرعاية طفلها، فلماذا لا نرى أنهم ينتقصون من المرأة، لماذا نضع أحكام الإسلام تحت المجهر ولا نفعل الشيء نفسه مع بقية الأديان؟

**رابعًا**: هل الحزن يقدر بمدة محددة؟ فتحد المرأة على زوجها أربعة أشهرٍ وعشرًا وعلى أقاربها ثلاثة أيام فقط وقد يكونوا أحب لها من زوجها؟

١. الله تعالى هو العالم بنفسية المرأة وطبيعة تكوينها وما هو أصلح لها قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

٢. جاء في السُنة عن زينب بنت أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالت: لما جاء

نعيُ أبي سفيان من الشأم، دعت أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بصفرة في اليوم الثالث، فمسحت عارضيها، وذراعيها، وقالت: إني كنت عن هذا لغنية، لولا أني سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج، فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرًا»[1]، ومثل ذلك فعلت زينب بنت جحش حين توفي أخوها[2].

فهل حزننا في هذا الزمن يختلف عن حزنهن رضي الله عنهن؟ المرأةُ هي المرأة، وإنما هو التسليم والانقياد لما أمر الله به ورسوله.

٣. حياة المرأة تنقسم إلى قسمين:

**الأول**: عند والديها وأهلها وهم مَن يتكفلون بأمورها فكان لهم حق عظيم عليها.

**الثاني**: حين تتزوج يتكفل الزوج بكل ما يقيم حياتها بالإضافة إلى اكتفاء المرأة به شعوريًا واجتماعيًا ونفسيًا، بما لا يقدر عليه غيره، فمكانته ومنزلته في حياتها لا تضاهيها منزلة أي شخص آخر، ووفاته ليست بالأمر الهين عليها، فصار حقه أعظم، والوفاء بحقه أوجب، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٢).

حسنًا، ثمة سؤالٌ مُلحّ! هل نستطيع القول لزوجةٍ انعدم بينها وبين زوجها المودة والألفة وأذاقها أصنافًا من العذاب؛ إن إحدادك إكرامًا له ووفاءً لحقه؟

هذا لا يقوله عاقل! بالطبع لا، بل نقول لها: إن إحدادك طاعةٌ لله فيما أمرك به، لا للزوجِ الذي تجرَّعتِ معه حياةً شاقةً يؤلـمُك تذكُّرها، وإحدادُك هذا أنتِ موعودةٌ معه بعظيم الأجر والثواب.

وفي الوقت نفسِه، لا نجعلُ هذه الحالات هي الأصل، بل هي حالاتٌ شاذة، ومهما كثُرت فإنها لا ترقى لتكون هي الأصل.

وفي كل شيء: يكون الحكم تبعًا للقاعدة الأصل، ومهما حصل؛ فإن عقد النكاح يبقى له شأن وقدر عظيم. بل إن بعض النساء مهما كان سوء الخلاف مع زوجها، إلا أنها تحزن لفراقه.

ومُلاحظٌ أن الإسلام دائمًا ما يهتم بالمحافظة على الأسرة وكيانها من التفكك والانهيار، فاعتدادُ الأم وإظهار الحزن والأسى على فراق زوجها له تأثير في عاطفة أبنائه وقرابته فيكون جبرًا لمصابهم، ويتعلم الأبناء الوفاء وعظم حق الأب حيًا وميتًا[١].

وهذه المدة -أعني العدَّة- ليست إلا مدة انتقال من مرحلة لأخرى، ولإطالة التأمل والتفكر بحال هذه الدنيا، وبالتقصير الذي

(١) يُنظر: أحكام الجنائز، سعيد القحطاني (ص: ٣٧٣).

وقعتْ فيه من قبلُ، مع زوجها أو نفسِها، ومن ثَمَّ تُخطط لحياتها القادمة برويَّة.

ولعلَّ هذه المدة التي قدرها الله عز وجل هي المدة التي تستطيع المرأة أن تصبر دون تكلف بلا نكاح، فالله عز وجل قدّر للرجل الذي يؤلي من زوجته أن ينتظر أربعة أشهر فإما أن يفيء (يرجع) أو يُطلِّق[1].

وكذلك فعل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد سؤاله لأهله كم تصبر المرأة عن زوجها، فكان لا يحبس الجيش عن أهلهم في الغزو أكثر من أربعة إلى ستة أشهر ثم يعودون إلى أهلهم[2].

## لماذا عدّةُ المرأة على أقاربها ثلاثة أيام لا أكثر، بينما تحدُّ على زوجها أربعة أشهر وعشرًا؟

تتجلى حكمة الشرع هنا بأن من لوازم الحداد امتناع المرأة عن الزينة والتجمل والتطيب، فلو فرضنا ما بين فترة وأخرى يموت لها قريب، وتحدُّ عليه فهنا يقع الضرر بزوجها الذي من حقه عليها أن تتزين وتتجمل له، فيكون هذا مدعاة لنفوره منها والبحث عن

---

(١) قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٢٦].

(٢) يُنظر: مُصنف عبد الرزاق الصنعاني (١٢٥٩٤)، والسُنن الكبرى، البيهقي (١٨٣٠٧)، تفسير المنار، رشيد رضا (٢/ ٣٣٣)، وزهرة التفاسير، أبو زهرة (٢/ ٨٢٠).

غيرها، وهذا يضرها في المقام الأول ويضر عائلتها، وبذلك تكون أضاعت الواجب عليها بما أبيح لها(١).

وتحديد مدة الحداد بثلاثة أيام، أو أربعة أشهرٍ وعشرًا هذا لا يعني أن الشرع أمرها بترك الحزن عن ميتها بعد هذه المدة، إنما أمرها أن تنتظر وتمتنع عن الزينة وتوابعها في هذه المدة فقط، ولم يحكم عليها أن تحزن أو لا تحزن!

طيب! إذا كانت هذه المدة لمعرفة استبراء الرحم فقد كفانا العلم الحديث مؤونة ذلك، فتستطيع المرأة معرفة ذلك في دقائق، فهذه المدة تنطبق على عصر النبي ﷺ أما الآن فلا حاجة لذلك مع تطور العلم! ما رأيُ الشرع في ذلك؟

**أولاً**: الإسلامُ دين ارتضاه الله لجميع الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها فمبادئ الإسلام وأحكامه صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان، فهو شامل كامل خالد لا يختص بزمان دون زمان، أو مكان دون مكان، ومَن فَرض هذه المدة هو الخالق العالم بكل ما ينفعنا ويضرنا، والعالم بما سيكون عليه العلم في الوقت الحاضر، وأنه سيعرف براءة الرحم بدقائق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] فإذا كانت العدّة فقط لاستبراء الرحم؛ فإذًا: لماذا تعتد الكبيرة اليائسة والصغيرة وغير المَدخول

(١) يُنظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، القاري (٥/ ٢١٨٤).

بها؟ بل الحكمة أجلُّ من ذلك وأعظم كما أسلفنا.

وفحصُ الحمل قد يكون لمعرفة براءة الرحم من الحمل لا لخلوه من ماء زوجها حين وفاته، وقد يظهر حملها بعد فترة من الزمن من إجرائها لفحص الحمل، ويحصل هذا كثيرًا.

**ثانيًا**: أن بعض الأحكام لا يمكن تطبيقها إما لانتفاء محل التطبيق عند بعضهم، أو عدم حاجة بعضهم الآخر له، فهل يعني إلغاؤها، كمَن قطعت رجله لا يحتاج لأحكام المسح على الخفين؛ لانتفاء المحل، فهل هذا يعني إلغاؤها وعدم تعلُّمها مِن جهته! وكذلك أحكام الرقيق لم يعد الناس بحاجة إليها، فهل يعني هذا إلغاؤها من كتب الفقه؟

وأختمُ بآخر سؤال دار في خَلَدي طويلًا! المرأة الحامل إذا ولدت بعد وفاة زوجها بدقائق انتهت عدتها، فلماذا لم يراعَ حزنها على زوجها؟

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأُوْلَاتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤]، وقد جاءت السُنَّة بذلك، في حديث سُبيعة بنت الحارث الأسلمية[١].

فأشارت الآيةُ الكريمة إلى أن انتهاء عدة الحامل هو وضعها

(١) صحيح مسلم (١٤٨٤).

لحملها، وكذلك الحديث، فلو وضعت بعد وفاة زوجها مباشرةً انتهت عدتها، قد تقول قائلة: بوضعِها عُرف براءة رحمها فانتهت عدتها، فعلاً قد تكون هذه إحدى الحِكم من العدة بل أساسها لكن ليست كلها، وهذا حكمٌ شرعي تعبدي قدره الله علينا، وعلينا تقبله والاستجابة له، فالله أعلم بشعور هذه المرأة وبحاجتها ولم يفرض هذا الأمر إلا وفيه حكمة بالغة علمناها أم جهلناها.

والزوج غالبًا هو مَن يتكفل بالإنفاق على أسرته ورعايتها، فإذا توفاه الله أصبح لا معيل لهم إلا خالقهم، فتتحمل الزوجة مشقة المسؤولية بالإضافة إلى حزنها على فراقه، فتحتاج لمَن يساندها، فكيف بالحامل التي إن ولدت تكون في أشد الحاجة لمُعين لها؛ لحالتها المرَضية ولرعاية طفلها الذي لا عائل له، وإن وُجد له عائل فقد يكون في ذلك مشقةً على أهل المرأة، لذلك؛ لعله كان من حِكم انتهاء عدتها بمجرد وضعها ليتيسر لها الزواج بمَن يحمل عنها هذه المسؤولية.

وسبحان الخالق الحكيم؛ وكأن وضعَ الحمل يخلق في المرأة نفسيةً جديدةً، فيكون معه إعادةَ تأهيل لمشاعرها قبل جسدِها، مما يجعلها قابلةً للانسجام مع رجل آخر، وهذا مما قد لا يُقدَر عليه ما لم تكنْ قد حمَلتْ ثم وضعتْ.

والحمدُ لله العليم الخبير، الذي قدَّر فهدى.

* * *

## مخرج...

الحزن له إحداثيات...... غيِّر مكانك !

# خُلِقت من ضِلع

د. وفاء بنت راشد الشبرمي[1]

وحيدًا في غارٍ بعيدٍ وسطَ صحراءِ مكَّة، جاءَه جبريلُ عليه السلام أولَ مرة، ففزِع حتى عاد ﷺ مذعورًا لا يلوي على شيء، توجَّه من تلقاءِ (قلبِه) إلى أرجحِ عقلٍ في قُريش؟ أم إلى أعلمِهم؟ أم إلى أعبدِهم؟ تحفظُ السيرة بلا مماراة أو مواربة، أنه ﷺ قد عاد إلى (امرأة)، عاد إلى زوجِه التي لا يُحسنُ فهْمه غيرها، فلم يُخْفِ انتفاضةَ خاطرِه، وارتعادَ أطرافه، بل كان على سجيَّة المضطرِب، قد طوَّقه شعورُ البردِ الشديد، فكانت كلمتُه التي لا تفهم بُعْدَها غير زوجِه الحنون: «زمِّلوني، زمِّلوني».

ثمَّ لما أجابتْه لحاجته ﷺ هدأتْ نفسُه، واستقرَّ وجيفُه، وجَدَ نفسَه يقُصُّ عليها كلَّ ما حدث له لأولِ مرةٍ مذ وعى الدُّنيا!

وقد رأى جِوارَها الدِّفءَ والسكونَ الذي ينشُدُه الخائفُ المذعور، فقالتْ له بعد أن قرأَتْ حالَه بعينَي قلبِها وخبرتِها وما تعرفُه من سَريرتِه وسيرتِه بين الناس، ولم يكن ثمة مسلمٌ أو مسلمة وقتذاك! لكنها الزوجُ الألمعيَّة والعقلُ الراجح: «والله لا يُخزيك الله أبدًا؛ إنك لتَصِل الرَّحم، وتَحمِل الكلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق»، فربَّتتْ على كتِفه ﷺ

(١) أستاذ مساعد في الحديث وعلومه - جامعة جدة/ السعودية.

بتذكيره بعظمتِه بين الناس في أشدِّ أحوالِه حاجةً لها، فعادتْ أنفاسُه الطيبةُّ مستقرَّةً، وافترَّ ثغرُ قلبه عن اطمئنانٍ لا يُسعِفُه البيان.

تُرى هُل يُحسن رجلٌ أن ينطق بمثلِ تلك الكلمات؟ مسبوقةً بقُربٍ عاطفيٍ يُمكِّن للشكوى أن تندلق من غير ترددٍ أو سابِقِ ترتيب.

ثمَّ أتبعتْ طمأنتَها الصادقةَ المُسدَّدةَ باقتراحٍ عمليٍ حين أخذتْ بيده ﷺ إلى ابن عمها ورقةَ بنِ نوفل، وكان ذا علم ومعرفة، لتزيد يقينه بأنه على خير، وأنه إن لم يكنْ هو الخيرُ في ثوبِ بشر فمَن يكون؟ ففسَّر له ما رأى، وصدَّق ظنونَ المرأةِ الصالحة! بأنه سيكون نبيَّ هذه الأمة، وأن الذي جاءَه جاء نبيَّ اليهود من قبل: موسى عليه السلام.

والمحزونُ لا يُمكن أن ينسى معروفَ من أَحسَن إليه ساعةَ اشتداد الكربِ عليه، فكيف إن كان أوفى الناس؟ نبينا ﷺ وقد عاشَ هذا الكربَ الشديد، فكان أمَنَّ الناس عليه بعد الله في تهدئةِ الرَّوع وقتَ اضطرابِ قلبه: امرأة!

أفيُعقَل – حاولي تقليبَ هذا بعقلِك الآن – أن يتفوَّه بكلمةٍ فيها (أدنى) استنقاصٍ منكِ؟

لم يرضَ ﷺ أن يومئ – ولو إيماءةً فقط! – بأن أحدًا خيرٌ من

خديجـة، فهـذه عـائش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهـي أحـبُّ زوجاتـه إليـه بعـد وفـاةِ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت عائشةُ شديدةَ الغَيرة، ورسولُ الله ﷺ شديدَ الحبِّ لها، رغـم هـذه المعطيات، أرادت عائشـةُ اختبـارِ محلِّهـا في قلب حبيبِها ﷺ، وها هي تروي غَيرتها في الحديث: كان النبي ﷺ إذا ذكـر خديجـة أثنـى عليهـا، فأحسـن الثنـاء، قالـت: فغـرتُ يومًـا، فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيرًا منها، قال: «ما أبدلني الله عز وجل خيرًا منها، قد آمنت بـي إذ كفـر بـي النـاس، وصـدقتني إذ كـذبني النـاس، وواسـتْني بمالهـا إذ حرمنـي النـاس، ورزقنـي الله عـز وجـل ولـدها إذ حرمنـي أولاد النساء»[1].

مَن كان بهذه المثابة، لا يرضى لزوجتِه - التي غادرتْه إلى الدار الآخرة - أن تُمسَّ ولو بإيماءةٍ، أفيرضى عن نساء المسلمين اللاتي لم يزلنَ في صُلب آبائهن أن يقول عنهنَّ كلمةً يجدُ فيها قليلُ عقلٍ منفذًا كي يستنقِصَ فيها من امرأةٍ، هي أمُّه وأختُه وزوجُه وابنتُه؟

بل على العكسِ من ذلك كلِّه، أوصى بنا ونحنُ لم نزل نُطفًا في ظهور آبائنا، حين روى عنه أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإنَّ المرأة خُلِقت من ضلع، وإنَّ أعـوج شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تُقيمَهُ كسرتَه، وإن تركته لـم يـزل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٨٦٤).

أعوج، فاستوصوا بالنساء»[1].

فأوصى بنا في أوَّل الحديث، وآخرِه، وجاء بيانُ مَحلِّ خلقتِنا بينهما «فإن المرأة خُلقتْ من ضِلَع»، وأيُّ نقصٍ في أن نُخلَق من ضِلع؟

بل، وأوصى الرَّجلَ ألّا يُحاول تغيير خلقة الله تعالى لنساءِ الأرض؛ لأنه - أي: الرجل - وحدَه مَن سيتضررُ من ذلك، وكمالُ المرأة في كونِها على هيئتها التي أرادَها اللهُ لها، فلا يغيِّرنَّ رجلٌ خلقةَ الله، فإن هذه أروعَ صورةٍ يُكتملُ بها بهاءُ الحياة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

لنكن صريحاتٍ مع بعضِنا، نحنُ ليس لدينا أدنى مشكلة مع النص النبوي نفسِه، لأننا - بلا نقاش - ندري أن أروعَ رجل تعامل مع المرأة هو قائل هذه النصوص ﷺ، وقد تكاملَ خُلُقه ﷺ مع النساء - لأنها قضيَّتُنا خاصةً - في أقوالِه وأفعاله، فلم يستطِع مُخالفٌ فضلًا عن غيرِه أن يفترَض تفسيرًا يدلُف منه لغرضٍ سيئ، إذ الباب مُوصدٌ تمامًا.

إذًا أين المشكلة؟

المشكلة بكلِّ وضوح أننا - كلَّنا أو بعضَنا - قد سمعنا توظيفًا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨).

خطأً وإقحامًا لا معنى له لهذا الحديث - ولو صحيحًا - وسط مشادَّةٍ مع أخٍ أو زوج.

وصلتْني مرةً رسالةٌ بريدية تسألُني فيها صاحبتُها وقد نما إليَّ من شدّةِ لهجتِها غيظًا عظيمًا، لو وُزِّع على أهل الأرض لكفاهم، تقول فيها - وسأحاول ترتيبها لكُنَّ:-

هل صحيح أنا عوجاء؟ أخي كلما أعطيتُه رأيًا ثم لم يُعجبه، قال لي بشفةٍ مائلة ولسانٍ هازئ: "مب غريب عليكم، هذا عوج النساء"، فأنفجرُ في وجهه: يعني أمي عوجاء؟ فيردُّ بهدوء يُثير حنقي: أمي محشومة، لكن ليش تفرّين من الحقيقة؟

-على فرض إنها حقيقة، ما أفرّ منها، أنت الذي تعمِّم ثم تستثني، ولا يمكن فهمك، لا أدري مَن الأعوج الآن"...

كان بريدًا غيرَ مُستغرب، لذا تلطَّفتُ معها وبيَّنتُ لها أن قدرًا كبيرًا من غيظِها، جاء من طريقةِ أخيها، لا من الوصفِ نفسه، ثم استدركتُ ببيان ما العِوج الذي ربَّما كان يقصده أخوها، بلا مسوِّغٍ طبعًا للطريقة التي كان يتخذُها مع أخته، وظللْنا نتبادلُ الرسائل حتى استقرُّ ضغطُ دمِها، وعادتْ لهدوئها الذي سبقَ أن عرفتُها به، من رسائل أُخَر.

لم أشأ أن أدفعَ لها بكلِّ ما عندي دفعةً واحدة، فكنتُ أسألُها

مرةً بعد مرة، حتى تتضح لها الصورة بالتدريج؛ فكان من رسائلنا المتبادلة؛ أن أخبرتُها بعدَّةِ أمورٍ في هذا الشأن، بعد ذكرِ الحديث لها كاملًا، منها مثلًا:

-أهلًا سارة، لاحظتِ بداية الحديث؟ أوله جاءت الوصية: «استوصوا بالنساء خيرًا»، وواو الجماعة يُخاطب بها الرجال، فالموصّى هم: الرجال، والموصَى بهن: النساء، وعادةُ الوصية أن تكون في مصلحة الموصَى به.

أخبرتْني مرةً صاحبةٌ لي، قالت: في الليلة التي عُقد فيها قِراني "كتب الكتاب"، كان يجلس جِوار المأذون أخي الأصغر – إذ نقَل لي هذه الحادثة – لمَّا قال والدي للرجل الذي أصبح فيما بعدُ زوجًا لي: زوَّجتُك ابنتي.

فردَّ عليه: قبلتُ.

ضجَّ الناسُ يُباركون، والتمعتْ عينا والدي يردُّ عليهم بآمين، والله يوفقهم ووو...، ثم التفت إلى الزوج الجديد: **«اللهَ! الله! بنتي يا ابني، تراها قطعة مني، وغالية عليّ، ما أوصّيك! حطّها بعيونك»**.

تقول صاحبتي: لا تسألي عن شُعوري بارتفاع أسهُمي عند والدي، ووصول هذا الشعور لزوجي، حتى إنه صارحَني بعد زمن

حين أخبرتُه بهذا الموقف – الذي في صالحي طبعًا -: بصراحة! حسيت إنك أغلى بناته عنده.

ولم أسعَ لتصويب أو تخطئةِ إحساسه هذا، المهمُّ أن هذا الشعورَ العميق الدقيق قد بلغَه من كلمات والدي حين أوصاه بي.

لا أدري كيف أخذَني الحديث، لذا سأختمُ هذا البريد بسؤال: هل شعرتِ بميزة الوصيةِ بكِ؟ أم...؟

جاءني بريدُها صباحَ اليومِ الجديد:

«**أولًا**: لا تحكي لي قصصًا تغدو معها شاشةُ هاتفي ضبابيةً لفرطِ دموعي! طبعًا غبطتُ صاحبتك الموصَى بها، ويا حظّها بوالِدها! بلى ميزةٌ أن يوصِّي بي أحدهم، لأن هذه الوصية: تعني مزيدَ اهتمامٍ ودلال.

طيب، السؤال الآن: ما علاقة الاعوجاج بالوصيةِ بنا؟ السؤال منطقي جدًا، على فكرة**!**

بانتظارك».

شُغلت عنها فلم أتمكَّن من الردِّ عليها إلا بعد يومين، وسط اعتذاري الشديد لتأخُّري عليها:

–سؤالك لبُّ موضوعنا، العلاقةُ واضحة يا جميلة! الحديث

الذي يَذكُر أنَّ المرأة خُلقت مِن ضِلع، قد صَدَر على سبيل توصية الرِّجال بالنِّساء خيرًا، تمامًا مثلما تُوصين بطفلِك لأختك حين تتولى رعايته ساعةً من نهار؛ لأنكِ تعلمين منها غضبًا سريعًا حين يُكثر الحركة أو يطلبُ وجبتَه، وهذا طبعُ الصِّغار.

لحظة، أدري بك! ستقولين: وما علاقتنا بالأطفال؟ ما وجه الشبه بيننا؟

لا أبدًا لا وجه شبه، العلاقةُ فقط أننا نحنُ من أنجبْنا الأطفال☺

طيب سأشرحُ لك الاعوجاج بعد قليل، لكن بالنسبة لهذا المثال الذي مثّلتُ لكِ به: فأنتِ توصين بطفلك حين تتولاه أختك، لأنك تدرين أنه سيقضي وقتًا طويلًا عندها، وقضاء الوقت الطويل مع أحدِهم، طفلًا كان، صغيرا أو كبيرًا، مظنةُ اختلافٍ في أمر، أو سقوطِ تكلُّفٍ لا يظهر عادةً مع مَن نجلس معهم وقتًا قصيرًا، والرجال والنساء حين يعيشون تحت سقفٍ واحد، فمن المؤكَّد أنهما يحتاجان لصبر "كثير" على بعضِهما، الرجل يصبرُ على زوجته حين تفقدُ أعصابَها لموقفٍ ما من زوجها، أو حين تنتهي طاقتُها جراء صخبِ أطفالها.

والمرأةُ كذلك تصبرُ على زوجها، لكلمةٍ طاشَ بها في لحظةِ غضب، أو شكوى من عمل، أو لشدّةٍ حال، أو غيرِها.

نعود للاعوجاج، ما شأنُه؟

أما عن كيفية خلق المرأة من ضلع فقد تضافرت الأدلة الشرعية من نصوص الكتاب والسُنة وكلام سلف الأمة ومَن تبعهم من الأئمة على أنّ آدم عليه السلام أصلُ النوع البشري، فقد خلقه الله من تراب، ثم خلق منه زوجَه حواء، ثم بثَّ منهما البشرَ جميعًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى آمرًا خلقه بتقواه... ومُنَبّهًا لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضِلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه»[١].

وحديثُنا يدلُّ ظاهره على أن حواء خلقت من ضلع، قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث المتقدم: «وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم»[٢].

وعلى هذا المعنى جمهور علماء المسلمين من السلف والخلف: أن الله تعالى خلق آدم أولاً ثم خلق منه حواء، ثم خلق منهما البشر جميعًا .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦).
(٢) المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي (١٠/ ٥٧).

وفي المسألة بحثٌ طويل لا تسعُه رسالةُ بريدية.

وأما قوله ﷺ: «وإنَّ أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تُقيمَهُ كسرتَه، وإن تركته لم يزل أعوج».

قال ابن حجر: «ذكر ذلك تأكيدًا لمعنى الكسر؛ لأن الإقامة أمرُها أظهر في الجهة العليا، أو إشارة إلى أنها خُلقت من أعوج أجزاء الضلع مُبالغةً في إثبات هذه الصفة لهنَّ، ويحتمل أن يكون ضرب ذلك مثلا لأعلى المرأة لأن أعلاها رأسها وفيه لسانها وهو الذي يحصل منه الأذى»[1].

ومن بديع ما وقفتُ عليه - في هذا السياق - توضيحُ الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- حيث يقول: «وأعوجُ ما في المرأة أعلاها؛ يعني: انعطاف صدرِها على طفلِها، وغلبة عاطفتها على عقلِها»[2].

وهكذا يكون العوجُ صفةَ مدحٍ في حق المرأة لا ذمـًا لها، إذ إنَّ هذا العوج في حقيقته هو استقامةُ المرأة لمهمَّتها كالقوس الذي لا يصلح لتأدية وظيفته إلا باعوجاجه وتقوسه، وكالسنبلة التي لا ينضج عودها، ولا يكتمل جمالها إلا بالانحناء.

وأما قوله: «وإن ذهبت تقيمه كسرته» قيل: ضَرب مثلاً

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر (٩/ ٢٥٣).
(٢) انظر كامل كلامه منقولاً في كتاب القوامة والحافظية، رشيد كهوس ص ١٣٦.

للطلاق، أي إن أردت منها أن تترك اعوجاجها أفضى الأمر إلى طلاقها، ويؤيده قوله في رواية الأعرج عن أبي هريرة ﵁ عند مسلم: «إن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها»[1].

وبعضُ الاستقامةِ صلافة، كما أن كثيرًا من العِوج جمال! وكيف لا يكون جمالًا وهو اختيارُ الله لنا؟

تعالي أوضِّح لك كيف يكون العوج جميلًا؟

-موجُ البحر أعوج، صح؟ ياه! لكنه جميلٌ جدًا!

-غمّازتا الوجنتين، في حقيقة الأمر هما عِوجٌ في الخدِّ المستقيم، لكنهما علامتا جمال!

-قوس السَّهمُ هل يمكن أن يُسدِّد الهدف لو لم يكن معوجًا؟ مستحيل!

تُراني أسوِّغ لنفسي هذا العِوج؟ أبدًا، لم يدُر في خَلدي أي شيء من هذا القبيل، وددتُ أن أشرح لكِ أن كل ما كان من الله جميل، وأن عِوجي هذا ليس نقصًا البتّة! كيف يكون نقصًا وكثيرٌ من النساء مُسدَّدات؟ هذه خديجةُ ﵂ في حادثة المزّمل مع النبي ﷺ، وهذه أم سلمة في حادثة صُلح الحديبية أيضًا مع النبي ﷺ وقد طلب رأيَها ابتداءً، فهل العوج يعني عوج الرأي والمشورة؟

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني (٢٣/ ١٣٥).

سأختمُ بريدي بحقيقةٍ أرجو أن تتأملي فيها!

غضبتُكِ الشديدة يا سارة، كانت بسببِ مشادَّتكِ مع أخيك، وأنا لا أُخطِّئك، لكني ألفتُ انتباهكِ إلى أن كثيرًا من رَدَّاتِ فعلِنا منشؤها الظَّرفُ النفسي وقتها، لا الحقيقةُ المذكورة.

ولو أنكِ كنتِ أهدأ في نقاشكِ معه، لجاءتْك الحُجة على طبقٍ من ذهب، كأن يخطُر على بالك أنه حاكَم رأيَك إلى رأيِه الذي يعتقد صوابه، فصنَّفه بأنه أعوج حين قارنه برأيه، ومَن الذي قال باستقامة رأيه ابتداءً حتى يكون ما سِواه أعوج؟ ثم إن كان كلّ ما يصدُر من الأعوج يكون كذلك، من أين جاء هو باستقامة آرائه وأفكارِه وقد تخلَّق في رحم أمه؟ وهي امرأةٌ "عوجاء" على قياسه؟

ثم إنه إن كان ثمةَ انتقاصٌ من المرأة حين نقول إنها خُلقت من ضِلع، وأعوج ما في الضلع أعلاه، فهل لو نادينا الرجل ووصفناه بأنه خلق من ترابٍ انتقاص له؟ إذ الترابُ جمادٌ في حين الضِّلَع جزءٌ حيٌ، والحيُّ أكملُ من الميت؟

لا أدعوكِ طبعًا لتحويل كلمتِه لمعركة، لكني أفكِّكُ لكِ قولَه، لتُدركي خطأَ مناسبتِها أصلًا، فلا تتكلَّفي "تبريرات" لكلمةٍ قيلتْ لإثارة حفيظتك، كما هو شأنُ كثيرٍ من الإخوة مع أخواتهم.

أراكِ على خير.

كانتْ فترةُ اختباراتٍ شُغلت فيها سارة، عرفتُ ذلك حين التقيتُ أمَّها من الغد، إضافةً إلى أن بريدي لم يكن يحتوي أي سؤال أنتظرُ إجابتها عليه، إذ ختمتُه بطلبِ تأمُّل.

فكان أن بعثتُ لها بآخر ما عندي في هذا الشأن الذي طلبتْ مني إيضاحه.

-أهلًا أهلًا، وفقكِ الله في اختبارك يا جميلة! بقيَ شيءٌ واحدٌ فقط في حوارنا في كلمة أخيك، والحق يقال إني سعدتُ بتقليبِ القولِ معك.

هذا الشيء الباقي مما لم أكتب به إليك، يدور حول:

هل المعنى على الحقيقة أم على سبيل المجاز؟ -أعني «خُلقت المرأة من ضلع أعوج» - هل هذا حقٌّ أم جاء للتشبيه لا أكثر؟

وردت روايات بألفاظ مقاربة في قوله ﷺ: «المرأة كالضلع»[1]، ولفظ: «إن المرأة كالضلع»[2].

قال محمَّد بنُ علّان: «يُستفاد من هذا نكتة التشبيه، وأنها

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٨٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٨).

عوجاء مثله لكون أصلها منه»[1] فلما كان الضلع أعوج، أشبهتْه لأنها خُلقت منه.

فيُمكننا القول؛ إن هذا التشبيه المجازي الوارد في الحديث، أراد منه ﷺ بيانَ حالها وصفتها وطبيعةِ خلقتها، والمعروف أنَّ القفص الصدريَّ للإنسان يتكوَّن مِن ضلوع معوجّةٍ إلى حدٍّ ما، والصواب بقاؤها على عِوجها، ولن تجدَ طبيبًا جرَّاحًا يُجري عملية تجميلٍ لتقويم اعوجاجها، وإلا أفسدها وجعلها غيرَ قادرة على أداء ما خلقها الله لأجله.

وبناء على هذا الوضع الطبيعي -المعروف عند العُقلاء - لِجُزء مِن جَسدِ الإنسان شبَّه به الرسول ﷺ وضْعَ المرأة، وأَمَرَنا بالتعامل مع النِّساء بما يُلائِم طبائعهنَّ، والتصرُّفِ معهنَّ على أساسٍ بأنهنَّ الجنس الناعم، وأنهنّ عاطفيات أكثرَ مِن الرَّجل - ولذلك يستقرُّ الرجلُ ويُنتج في حياته حين تغمُره المرأة بالعاطفةِ التي لا يُمكن أن يملأ فراغه غير امرأته - وقد خلقهنَّ الله كذلك بمشيئته لدواعٍ خاصَّة، ومنحهن قدرات تفوق الخيال في العطاء والحنان والاحتواء، وهذا كله يتماشى مع طبيعة (الضِلَع) ممَّا يتوجَّب على الرجال مراعاة الرِّفق في التعامل مع النِّساء دائمًا، والاستصحاب للرِّفْق والأسلوب الجميل في التعامل معهنّ.

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ابن علان (٢/ ٣٨٦).

أما إن كان الرجل قاسيًا في تعامله مع المرأة، فهي لن تتحمَّلَ ذلك بوضعِها النفسيِّ والعضويِّ، وستنكسر مشاعرُها كما ينكسر الضِّلع لدَى محاولة تقويمه، فالحديث إذًا يؤكِّد، ويوصي بالرِّفْق والرحمة في معاملة النِّساء، فأين الانتقاصُ في كلِّ ذلك؟ وأين كمالُك أيها الرجل في كونِك من تُراب؟

وأنتِ لو تأمَّلْتِ عاطفةَ المرأة، وحنانها على أطفالها، وأردْنا أن نرسمَ في أذهاننا صورةَ المرأة الأمِّ مع أطفالها، لرسمْنا امرأةً منحنيةً لهم، مائلةً برأسها فوقَهم، فلا تجتمعُ استقامةُ الجذع مع حَدَب المرأة وعطفِها، ولنتأمل يوميات هذه الأم؛ فإننا واجدُوها مرضعةً لطفلها، أو حاضنةً وحامية، أو منظّفةً راعية، وفي جميع هذه الحالات لا تكون إلَّا منحنية.

كما أن اعوجاجَ الضِّلَع فيه حمايةٌ لقلْب الرجل، فكأنَّما المرأة تحميه، وتوفِّر له الاستقرارَ والطُّمأنينةَ والرِّضا، فتكفُل قلبَه ليهنأ ويستقر، كما أن الضلع المعوج إنما يحمي باعوجاجه هذا القلب الذي بسلامته يعيش الجسد كله صحيحًا معافى! يأتمر بأمره، ويكون كيفما كان. فسبحان من خلق فسوّى، وقدّر فهدى.

* * *

## مخرج...

"وبالوالدين إحسانًا " ولم يقل بالأبوين؛

ليُذكرك آلام ولادتك !

# هل تلعنها الملائكة ؟

د. إقبال بنت علي العنزي(١)

في نُزهةٍ استجماميَّة، اختارتْ ابنتي الصُّغرى أن تكون لمقهىً صغيرٍ بالجوار، سِمتُه الهدوءُ عادةً، دَخلْنا أصطحبُ ابنتي ويتقدَّمُنا والدُها.

كنّا نمشي الهُوينى، لفرطِ ما أحبَّت ابنتي أن تتأمَّل المكان بتأمُّلٍ عميق، وكأنَّها لم ترَ صورته عَددًا غيرَ منتهٍ على الشبكة العنكبوتيةً!

لكنّي حبستُ أنفاسي، وابتسمتُ في سِرِّي وحدَّثتني نفسي: أن لا تُنكِّدي نزُهتها، دعيها تمشي بالبُطء الذي تُحبّ! ليس لأطفالنا خيارٌ حتى في نوعِ مشيتهم في وقتِ نُزهتهم؟ يا لطيف!

فاستبدلتُ بغيظي الذي كادَ يُفسد الحياةَ والحياء، تلطُّفا مُبالغًا فيه: هاه حبيبتي، وش رأيك بالمكان؟ أنا أعجبني منذ أن رأيتُ واجهتَه من الخارج!

لا أدري، ربما كان تصرُّفي مع طفلتي غريبًا، كنَّا نمشي ببطء شديد، أعترف بهذا، وقد سبقَنا والدُها ليختار محلًا مناسبًا، لأنه يعلمُ من نفسِه أنْ ليسَ بوُسعه كلّ هذا "البرود" في المشي، فاختارَ لسلامتِه وسلامةِ نزهتنا أن يمضي بهدوء قبلَنا.

---

(١) عضو هيئة تدريس في قسم التفسير والحديث – كلية الشريعة - جامعة الكويت.

بصراحة لـم أتنبَّـه لـردِّ ابنتـي، إذ كانـت -في الطاولـة التـي مررْنـا عليها قبل ثـوان – فتاتـان، خمَّنـتُ أنهمـا في أوائـل الجامعـة، التفتَتـا إلينا ساعةَ سؤالي لطفلتي، ثم تبادَلَتا ابتسـامةً مُسـتغرِبةً هازئـةً في آنٍ واحد، تصنَّعتُ أني لـم أنتبـه للالتفاتـة، ولا الابتسـامة، ففـي أحيـان كثيرة يحسُن بك أن تتظاهر بالغفلة، وأنتَ في قمَّةِ تركيزِك!

هذه المرة، أنـا التي تباطـأتُ عـن ابنتـي التـي سبقَتْني خطـواتٍ يسـيرة، لأنـني توقعـتُ أنَّ قنبلـةً موقوتـةً في صـدرِ إحـدى الفتـاتين، تُوشك على الانفجار، فاستمهلتُ نفسي.

وقـد صـدق تـوقُّعي؛ همسـتْ إحـداهما لصـاحبتها بصـوتٍ خفيض، سمعتُه بأذنيّ قلبي قبـل أذني سَـمعي "والقلـبُ يسـمعُ قبـل الأذن أحيانًـا": تبـدو الأمُّ متعلِّمـةً فاهمـة، قليـل أشـوف أمهـات يتحاورْن بهذه الطريقة، بس في شيء واحد لم أستوعبْه للآن!

-وشـو؟ مـا في شـي استغربته عليهـا، إلا إنهـا مـرة معطيـة بنتهـا جوَّها، رغم إنها بالكاد تصلُ لخاصِرتي!

تُكمل بصوتٍ أقربِ للهمس: أنا رحت بعيد، نفسيّة الأم نفسية وحـدة مسـتقرة في زواجهـا، رجَّعـت لـي فكـرة إن "الـزواج شـيء سـعيد"، وهـذي فكـرة تخطـر لـي كثيـرًا، لكنـي سـمعتُ مـرةً في المحاضرة، أو في الإذاعة -نسيت والله- حـديثًا عـن النبي ﷺ: إن المرأة تكون "ملعونة" إذا ناداها زوجُها فلم تُجبه، متخيّلة عبودية

أكثر من هذي؟

-والله أنا مادري ما جاء بهذا الحديث في حادثة أمٍ وطفلة تتحاوران في مقهى!

-صح عليك، لذلك قلت لك تراي رحت مرة بعيد، قصدي: هذي الأم المتعلّمة كيف رضت بنمط حياة - أعني الزواج - يجعلُها بتلك المنزلة!

رنَّ هاتفي بصوتٍ عالٍ، فخجلتُ منهما، لأني لم أستفِق إلا وأنا بمحاذاتِهما بلا وعيٍ مني، خطفَ قلبي اعتراضُها!

تلفَّتُ لأبحث عن ابنتي التي كانت تبعُد عني مسافةً يسيرة، فلم أجِدها، يا الله!

أجبتُ على الاتصال وقلبي مع ابنتي، فأتاني صوتُه: ديم معك؟

=إي والله! بس ما... ما...

-ديم عندي! وينك؟

=الحمد لله، الحمد لله، المعذرة منك، شغلَني التأمُّل في الديكور، سحَرَني بدرجة ما تتخيل!

-التأمل في الديكور ولاّ في خلق الله؟ ننتظرك في الدور الثاني، الطاولة اللي على اليمين، مع السلامة.

أغلقتُ هاتفي، وحملتُ حقيبتي، والفتاتان تُصعِّدان النظر إليّ، هل اكتشفا تنصُّتي عليهما؟ يارب تغفر لي! ما كان قصدي، لكني عجزت أتخلَّص من فضول معرفتي للاستفهامات التي يُثيرها تعامُلي مع طفلتي في الخارج، وودتُ لو أُتيح لي الجلوسُ معهما لخمس دقائق فقط، لأصحِّح لها الجزء الثاني من مشكلتها في فهم حديث النبي ﷺ، لكن أبا ديم كان ينتظُرني.

لمّا وصلتُ إليه، جلستُ وأرسلتُ طَرفي بعيدًا، تنبَّهتُ، وأبو ديم يقول لديم:

-والله يا بنيتي، أمك شكل ساحِرها الديكور لدرجة غير طبيعية! وش رأيك نطلب أنا واياك وهي تـ....

=هلا والله وغلا، المعذرة للمرة الثانية! أنت لو إنك حضرت المشهد الذي حضرتُه قبل قليل كان عذرتَني في سَرَحاني.

-جلجلتْ ضحكتُه في الهواء: للحين عندك هواية سماع سواليف الناس؟

يبدو أنه صادق، ففضولي مازالُ مستوليًا عليّ، فأجّلتُ النقاش لوقتٍ آخر لأن طفلتَنا كانت بصُحبتنا.

إلا أن عقلي لم يزلْ يستحضرُ تفاصيل الواقعة! كانت تقصدُ حديث النبي ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات

غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح»[1].

وقد أشكلَ عليها: كيف تلعنُ الملائكةُ المرأةَ لمجرد عدم تلبيتها لرغبة زوجِها؟ ما هذا الخطاب الذكوري!

والحقيقة، أن الحديثَ لوحدِه ليس مُشكِلًا، بقدر ما أن الجوَّ الذي تتنفَّسه تلك الفتاتان، وغيرُهما، كان مشحونًا بما يملأ عقولهنّ بأن المرأة في منزلةٍ أدنى، وأن الرجلَ مُقدَّمٌ دائمًا... إلخ!

والحال أن الأمر ليس كذلك، وسأحاول أن أبيِّن ما عندي في نقاطٍ واضحة، كنتُ أزوِّرُ في نفسي أن أذهبَ إليهما، وأستأذِنهما في المداخلة على حياءٍ شديدٍ مني، لكنهما غادرتَا المكان قبلي.

**أولًا**: كحال أي قضية على طاولة النقاش، لا يصح محاكمة الفرع دون الرجوع إلى الأصل، ولا يصح إمعان النظر إلى الجزء وإغماضُ العينين عن الكل، فالمرأة في الإسلام - دعكِ من تصرِّفات أبنائه - إنسانٌ له كيانه المحترم، وحقوقه المحفوظة.

**ثانيًا**: جاء اللعن مُفسَّرًا في باقي الروايات وهو: «فبات غضبان عليها»، يعني أنه لما طلبها مُحتاجًا إليها فامتنعت، فتسببّت في غضبه، فاللعن لأنها أغضبتْ زوجَها لا لمجرَّدِ رفضِها.

طيب وإن رفضت فلم يغضب؟ هل تلعنُها الملائكة؟ لا! إذا لم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٧).

يغضب من ذلك فلا تكون المعصية متحققة، إما لأنَّه عَذَرها، وإما لأنه ترك حقه من ذلك[1].

وربما التبس هذا الحديث بما اشتهر عند كثير من الناس: «أن المرأة إذا باتت وزوجها غضبان عليها لعنتها الملائكة» وهو حديث لا يصح[2].

**ثالثًا**: وحتى اللعن في الحديث لا لمجرد امتناعها عن تلبية مراد الزوج، بل هو بسبب منعِها حقَّه، وهي قادرة على أدائه، وليس هذا اللعن خاصًا بها، بل كل مظلوم يُبادَر للعنِ ظالمه مثل: لعن السارق، ولعن مَن اتخذ الروح غرضًا، ولعن مَن غيَّر منار الأرض... إلخ[3].

والذي يجعل الحاجة الجنسية حقًا للرجل -هي- طبيعتُه الملِحَّةُ لقضائها، ولذلك لم يرِدْ مثل هذا اللعن في حق الرجل؛ لأن الحاجة عند المرأة أخفُّ، وهذا أمرٌ جَبَل الله عليه الرجل ليكون أحوج إليه، وجَبَل المرأةَ لتكون محتاجةً له على نحوٍ أقلَّ من حاجة الرجل.

والمرأةُ إذا تكرر منها هذا الرفض بغير سبب فإنه يكون مدعاةً

---

(١) نيل الأوطار، الشوكاني (٢٤٨/٦).

(٢) انظر فتوى رقم ١٠٠٠١٠ بعنوان (هل تلعن الملائكة من باتت وزوجها عنها غير راض) موقع إسلام ويب.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠).

لفتنةِ الزوج، ولا يكون غريباً بذلك كون الحاجة إلى الجنس أحد أهمُّ أسباب الخيانة الزوجية أو الطلاق.

والمرأة مأجورة على إعفافِ زوجها، قال النبي ﷺ: «وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرًا»[1].

**رابعًا**: هناك حالات يحرم على المرأة أن تلبِّي حاجة زوجها هذه، نحو: كونها صائمة فرضًا، أو دعاها في حال حيضِها، فالمسألة لا تتعلق بذات الرجل، ولا بمجرد الرفض، بل حالةٌ معينة، تترتب عليها مفسدة كبرى في حال إهمالها، فجاءت الشريعة لتضع الحدود بكل وضوح.

بل اختار شيخُ الإسلام ابن تيميَّة -رحمه الله- جواز هجْر المرأة لزوجها لحق الله، واحتجَّ بحديث كعب بن مالكٍ في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا عن غزوة تبوكٍ، وفيه: فقال: «إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزلَ امرأتك، فقلت: أطلِّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر»؛ وقال: «وتهجر المرأة زوجها في المضجع لحق الله؛ بدليل

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٠).

قصة الذين خلفوا في غزوة تبوكٍ، وينبغي أن تملك النفقة في هذه الحال؛ لأن المنعَ منه، كما لو امتنع من أداء الصَّداق»[1].

ثم إن الشريعةَ قد جعلت للمرأة الحقَّ في طلب الطلاق، أو الخُلع، في حال عجزه عن القيام بالحقوق الحميمية[2].

ويمكن أن يكون حق المرأة الجنسي داخل في قوله ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع مَن يقوت»[3]، والمرأة داخلةٌ فيمَن يقوته الرجل، وهو مُستحق للإثم في حال تضييعه لها جنسيًّا.

وفي قوله ﷺ في الحديث الذي يقطُر دفئًا واهتمامًا: «اللهم إني أُحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة»[4]، ومعنى: (أُحرِّج)؟ أي: أُضيِّق على الناس في تضييع حقهما وأُشدد عليهم، وأُحذر من ذلك تحذيرًا بليغًا، وأزجر عنه زجرًا أكيدًا[5].

والذي يمكنني أن أخلُص إليه، أن فكرة تلك الفتاة كانت خطأً، وليست المرأة في منزلةٍ أدنى من زوجها لورودِ ذلك الحديث، كلُّ ما في الأمر أن من أهدافِ الزواج الكُبرى: إعفاف الطرفين كليهما،

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية (٥/٤٨٠).
(٢) يُنظر: الموسوعة الفقهية (١٩/ ١٢٠) ويُنظر: بحث أحكام التفرقة بين الزوجين بالعنّة، عبد الوهاب الشقحاء، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، مصر، مج ٦/ع٦١، ديسمبر ٢٠١٦م.
(٣) أخرجه مسلم (٩٩٦).
(٤) أخرجه النسائي في "الكبرى" (٩١٠٤)، وأحمد (٩٧٩٧).
(٥) فيض القدير، المناوي (٣/٢٠).

فالامتناعُ من أيٍّ منهما بلا سبب، غيرُ مقبول، فالمرأةُ تلعنُها الملائكة إن أغضبتْ زوجَها بذلك، وهو إن لم يُؤدِّ حقَّها في ذلك فإنه يُمهَل مدةً محددةً تُسمى "مدَّة الإيلاء" فإن لم يعُد إليها فإن الشَّرع يُلزمه بأن يُطلِّق لتعيش هذه الزوجة حياةً كريمةً مع رجلٍ يقدِّرها حقَّ قدرِها.

والحياةُ الزوجيةُ دفءٌ واهتمام، وآمالٌ لا مُنتهى لها، في سَكَنٍ نفسي حقيقي، وأطفالٍ يرى فيهم الأبَوان، الحيَاة... كل الحياة! فلِمَ يُصرُّ كثيرون على تسويدِ هذا الفضاء الرّحيب بقتامةٍ منشؤها فَهمٌ خطأ، وحالاتٌ لا تُرى بالعين المجرَّدة!

* * *

**مخرج...**

يجب عليك باستمرار مراجعة قناعتك، فقد تعيش عُمرك محرومًا بسبب قناعةٍ لا أصل لها !

# يقطع الصلاة المرأة

د. شيخة بنت عبدالله المطوع[١]

بعد مضي يومٍ دراسيٍ شاقٍ مُضنٍ، تكاثرت فيه الأبحاث مع سيل من الاختبارات؛ دلفتُ إلى غرفتي مُجهدةً مُتعبة وقد أعياني السهر المتواصل على الشاشات والتهام المعلومات، وسلواي التي لا تكلفني شيئًا في حالاتٍ كهذه: تصفح مواقع التواصل (والسناب شات) لعلي أحظى بآخر الأخبار، المهمة وغير المهمة... كانت من ضمن القائمة المُتصفحة تلك المجنونة ديمة، مثقفةٌ غريبة الأطوار، تنهل من كل الثقافات، في حين تبذل وسعها كي تعطيك انطباعًا أنها مُتفهمة وواعية، تجعلك تحار في أمرها، في تحليلها لكل شاردة وواردة، من غير ميزانٍ محددٍ أو بصيرة واضحة، لكن هذه المرة وضعت معلومةً غريبة بعض الشيء بل صادمة!

فحواها أن الرسول ﷺ يُشبِّه المرأة بالكلاب والحَمير!، وتستدل على ذلك بحديث: «يقطع الصلاةَ المرأةُ والحِمارُ والكلبُ» وأخذت تندد وتطالب بالعدالة والمساواة وغير ذلك من الشعارات التي يرفعها بعضهن من باب التقليد أو بالأحرى من

---

(١) دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه - الهيئة العامة للتعليم التطبيقي/ الكويت.

باب لفت الأنظار.

لا ألتفت عادةً لهذا النوع من الأخبار، كوني والحمد لله نشأتُ في أسرةٍ تحترم المرأة وتُقدِّرها، وأعيش في دلالٍ مُفرطٍ مِن جهة والديَّ، حتى أنهما يُفضّلاني في كثير من الأحيان على إخوتي الذكور، أقول هذا من ورائهما، وإلا فإني لم أرَ مُدلَّلًا يعترفُ بدلالِه.

لكن الموضوع هذه المرة اختلف عندي؛ إذ تعلق بحديثٍ نبوي، أعترفُ أني لستُ مُستقيمة وعندي تقصيرٌ واضح - غفر الله لي - لكنني أنظر لمَن رُزقن الاستقامة بإكبار، وأنا على يقين بأنه من الممكن أن تَحدُث مُستحيلاتٌ من نوع: شروق الشمس في المساء! لكن أن يصدُر من رسول الله ﷺ ما يُمكن أن يُفهم منه استنقاصُ المرأة أو تشبيهها بالدواب، فهذا من أشد المُحال!

بحثتُ بدايةً عن هذا الحديث لأتأكد من ثبوته - وهذا مُتاح اليوم والحمد لله - فأنا أعرف أن مصادر ديمة في كثير من الأحيان غير موثوقة - ففُجعت حين علمت أن الحديث صحيح، ذكره الإمام مسلم في صحيحه، ومرويٌّ عند أصحاب السنن[(١)] ماذا يعني ذلك؟ يعني أن الحديث صحيح!

بعد أن كنت مُتعبة مُنهكة إذا بي أهبُّ مذعورة مأزومة، مما زاد

(١) أخرجه مسلم (٥١١).

الطين بلةً أن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قد استشكلت هذا الحديث أيضًا فقالت: «قد شبهتمونا بالحمير والكلاب، والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلي وإني على السرير بينه وبين القبلة مُضطجعة، فتبدو لي الحاجة، فأكره أن أجلس فأوذي رسول الله ﷺ، فأنسلُّ من عند رجليه»(١).

يا الله! يبدو الأمر عويصًا أكثر مما أظن!

تبخّر التعب والإرهاق والسأم، وشُغلت بكل جوارحي؛ لم أفكر حينها إلا بالاتصال على خالتي أمينة، كثيرًا ما وجدتُ عندها حلاً لأسئلتي الشاطحة، لاسيما المتعلقة بالجانب الشرعي، كونها متخصصة شرعية، إضافة لأسلوبها العذب وصدرها الرحب لاستشكالاتي المتكررة، إذ أني -مؤخرًا- لم تعد كل الأجوبة تقنعني، كان الوقت متأخرًا فقررت إرجاء الاتصال بها صباح الغد إن أحياني الله تعالى.

وضعتُ المنبه قريبًا مني، وضبطتُ موعده هذه المرة على موعد المكالمة لا المحاضرة، ولا مقارنة بينهما الآن!

إن كان فهمي للحديث صحيحًا - وأرجو من كل قلبي ألّا يحدث ذلك - فإن هذا يعني انهيار منظومة من الأمور المتعلقة بمكانة المرأة في الإسلام، والتي درجت على الاعتقاد بها حينًا من

---

(١) أخرجه مسلم (٥١٢).

الدهر.

ألا أيُّها الليل الطويل ألا انجلِ! ما أطول هذه الليلة المُحمّلة بسؤالاتي...

جاء الصباحُ الجديد، واستيقظتُ قبل المنبّه، ثم في تمام الساعة الثامنة كنت قد رفعتُ سماعة الهاتف، اتصالات الصباح غالبًا ما تكون مُقلِقة، لذا تفهمتُ صوتُ خالتي أمينة المندفِع كأنما ينتظر فاجعةً: مريم! يا لله صباح خير عسى ما شر؟

=قلتُ لها بصوتٍ مُحرَج: الحمد لله كلنا بخير، لا تقلقي، بس عندي سؤال ما أحصّل جوابه عادةً إلا عندك.

أجابتْني بعد أن هدأتْ أنفاسُها: الحمد لله إنكم بخير، تفضلي هاتي ما عندك.

=والله ما أعرف من وين أبدأ، بس سؤالي بدون مقدمات: هل صحيح أن المرأة بمنزلة الحمير والكلاب؟ وأنها إذا مرّت أمام المصلي تقطع الصلاة؟ معقولة أنا مثل الحيوان يا خالتي؟ ثم لم يوقف سيلي الهادر في التباكي عليّ وعلى بنات جنسي غير مقاطعتها لي:

-مريوم حبيبتي! وش عندك الحين؟

كانت المحاضرة آخر همي لذلك قلت لها: ما عندي شيء.

-أجل حياك عندي، بيتكم بآخر الشارع؛ أنتظرك خلال عشر دقائق.

في بيتها، جلستُ قبالة الطاولة المستديرة، التي يشغلُها قدح قهوة... صُحبة الشوكولا التي أحب، ما هذا اللطف الآسِر؟

سألتني بصوتٍ مهتمّ، بعد أن رحّبت بي وسألتني عن أحوالي: هل تعتقدين يا مريم أن الله الذي أكرمك كإنسان، ووهب لك الإرادة، ونفخ فيك من روحه وأسجد لأبيك ملائكته، وطرد إبليس من جنته لعدم رغبته بالسجود له، وفضّلك على كثير ممَّن خلق تفضيلًا يشبهك بالدواب والحمير؟ علاوةً على أنه كرم بنات جنسك، ولعل تسمية سورة من سور القرآن باسمك لمَن أبرز الأدلة التي تقف الآن ضدك، بل وقرن رضاه برضى أمك وغيرها من الأدلة التي تحفظينها عن ظهر قلب ولا حاجة لتكرارها، وكلها تشهد الآن بما يخالف فهمك!

=استجمعتُ نفَسًا طويلًا ثم زفرتُه: والله كلامك جميل، لكن سؤالي لا يزال قائمًا: ما المقصود بالحديث إذًا؟

خالتي ذكية، لا تترك عادتَها في التمهيد لإجاباتها، لذا قالت لي: قبل أن أعرِّج على المقصود من الحديث أحب أن ألفت انتباهك لقضية لها تعلق بحديثنا هذا، هل تذكرين معلمة الأحياء التي كانت قد درستك ذلك المنهج المستورد في المرحلة الثانوية، وكنتِ

تتضايقين منها لإيمانها بنظرية دارون؟

=أووه ومّن ينساها! نعم أذكرها وأذكر سجالنا ونقاشنا حيال تلك القضية، ولكن ما شأنها وحديثنا؟ جاءني استفهامُها على عجل: ألا تذكرين تذمُّرك في كل مرة ولجوءكِ إليّ في كل مناقشة كونها تقرر أن ثمة سلفٌ مشترك بين الإنسان والقرود؟ وكنتُ في كل مرة أذكر لك أن هذه النظرية تخالف القرآن والسُنّة الصحيحة في أصل خلقة الإنسان وتكريمه .

عدَّلتُ من جلستي ونظرت إليها وقد فهمتُ ما ترمي إليه: تقصدين يا خالتي العزيزة! أن مَن يرفض ابتداءً كون خلقة الإنسان متساوية لأصل خلقة الحيوان مستحيل أن يساوي بينهما فيما بعد؟

ضربتْ بيدِها على الطاولة وقالت بصوت يملأه الحماس: يا سلام عليك كما عهدتك ذكية وفطنة - طالعة على خالتك - ممكن تقولين لي أجل: كيف هزّتك تلك الأقاويل والشبهات؟

ابتسمت ابتسامة باهتة وبدأت ألومُ نفسي، وجعلتُ أتذكر بحثي في المرحلة الثانوية لأثبت للمعلمة صحة النظرية الإسلامية ومقارنتها بنظرية دارون المتهالكة، كيف غفلتُ عن ذلك، وكيف انطلى عليّ الأمر بهذه السهولة؟ ولكني تذكرت قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وقولها: أعدلتمونا بالكلاب والحمير؟

=فقلت لها: ولكن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد استشكلت أيضًا هذا

الحديث وظنت مثل ظنِّي!

-قالت لي بوقار: سؤالك هنا في محله، أولاً: عائشة رضي الله عنها ظنَّت أن هذا الكلام من كلام الرواة وليس من كلامه ﷺ، وما كان لها أن ترد حديثًا قاله عليه ﷺ أو تقلل من مقامه، ويدل على ذلك قولها أعدلتمونا؟ ولم تقل قد عدلنا رسول الله، وعائشة رضي الله عنها كغيرها من الصحابة لم تسمع كل حديثه ﷺ أو تُحِط به علمًا.

ثم إن جُل اعتراضها كان لأجل مخالفة الحديث لفعله ﷺ، فقد كان يصلي وهي مُستلقيةٌ مُعترضةٌ قبلته، ولم تقطع صلاته، ولم يأمرها بالتنحي، فاستغربت المُخالفة بين قوله وفعله، لذلك فرّق العلماء بين المارّ والماكث؛ لأن المارَّ يُشغل النظر ويُلهي القلب خلافًا للماكث.

=طيب، نعود لأصل كلامنا: هل فعلاً تقطع المرأةُ المارّةُ الصلاة؟

-قدمت إليَّ إناء الفاكهة الموجودَ بالجوار، وناولتْني سكينًا ثم توجَّهت بسؤالها إليّ: هل تذكرين قصة سيدنا يوسف ﷺ وامرأة العزيز؟

=قلت لها مباشرةً: النسوة اللاتي قطعن أيديهن...

-ابتدرتْني: هل قطعن أيديهن فعلًا وفصلنَ الكفَّ عن معصم اليد؟

=أجبتُها سريعًا: لا! هذا لا يقول به عاقل، بل إن المُتبادر إلى الذهن أنهن جَرَحْنها وخدشنها وهذا ما فسَّر به المفسرون الآية.

-قالت: وهذا بالضبط المعنى الذي ينطبق على الحديث فالقطعُ المقصود به هنا نقصُ الخشوع، لا أنّها غير مقبولة، وجمهور الفقهاء والعلماء يؤكدون على أن الصلاة صحيحة ولا يجب إعادتها .

=قلت لها: إذن ما وجه المقارنة بينها وبين الحيوانات المذكورة؟ لما ذكرن جميعًا في الحديث؟

-قالت: رويدكِ قبل أن تحكمي؛ هل إذا قرنت في حديثك بين شيئين أن هذا يعني تساويهما المطلق واشتراكهما في الحكم والصفة وما شابه؟

=قلت لها وقد نفد صبري: لم أفهم!

-قالت: لأمثل لك، عندما أقول إن الإنسان والحيوان يحتاجان إلى الغذاء، فهل هذا يعني إن الإنسان حيوانٌ لاشتراكهما في الحاجة؟

إذا قرأتِ لافتةً على إحدى المتاحف تمنع دخول الأطفال والحيوانات الأليفة، هل يدل ذلك على إشراكهما في الخلقة والصفات وسائر الأحكام؟

=قلت: لا بالطبع! قد يشتركون في صفة أو حاجة ولا يعني تساويهما المطلق في كل أمر.

وحاشا لرسول الأمة ﷺ أن يقرن إنسانًا بحيوان إلا من باب ضرب المثال، أو لاشتراكهما في قدر أو أمر معين، وقرنه هنا بالمرأة لأنها قد تشغلُ القلب بمرورِها وتقطع الخشوع الذي هو جوهر الصلاة ولبُّها كما قد تشغله الحيوانات.

=ولماذا لا يشغله الرجل المار فقد يلهي كما تلهي المرأة؟

-قالت: هذا ما أردتُ قوله! ولكنك دومًا ما تستبقين الأحداث، ثمة أحاديث كثيرة تنهى عن مرور الرجل أيضًا، ففي الحديث: «لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه - يعني من الإثم - لكان أن يقف أربعين: خيرًا له من أن يمر بين يديه»[1]. أي: أربعين سنة.

وقال ﷺ: «إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس، وأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان»[2].

لذلك أمرنا أن نضع حاجزًا أو سترة لنتقي الشغل والإلهاء بكل

(١) أخرجه البخاري (٥١٠)، وأخرجه البزار في مسنده (٣٧٨٢) بلفظ: "أربعين خريفا".
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩).

مارٍّ رجلًا كان أو امرأةً أو دابةً لحديث: «إذا صلَّى أحدكم فَلْيُصَلِّ إلى سترة وَلْيَدْنُ منها»[1].

ثم أردفتْ: هل تصدقين يا مريم! أن بعض الأحاديث فيها من تشبيه الرجال ببعض الدواب في بعض الصفات، وفي أفعال الصلاة، ولكن لم يُسلَّطُ الضوء عليها أو يقال أن الشريعة قارنت الرجال بالدواب؟

=معقولة؟ عطيني مثال أو مثالين!

-شبَّهه بالديك إذا قام وأدى الصلاة بسرعة كنقر الديك عندما يبحث في الأرض عن طعامه فقد قال ﷺ: «ألا أخبركم بصلاة المنافق، يدع العصر حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، أو على قرني الشيطان، قام فنقرهن كنقرات الديك، لا يذكر الله فيهن إلا قليلاً»[2].

وشبَّه جلسته إذا افترش ذراعيه بجلسة الكلب أو السبع فقال: «إذا سجد أحدكم فليعتدل ولا يفترش ذراعيه افتراش الكلب»[3].

=وجدتُني أكملُ حديثَها بلا وعيٍ مني: والحقيقة أننا في عامة كلامنا نشبه بالحيوانات ولا نقصد الذم، بل إننا نقصد في كثير من

---

(١) أخرجه أبو داود (٦٩٨).
(٢) أخرجه أحمد (١٣٥٨٩).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٥).

الأحيـان المـدح، نقـول: فـلانٌ كالأسـد كنايـة عـن شـجاعته، أو كالصـقر لعزتـه وإبائـه، أو كالـذئب لشـهامته وإقدامـه، بـل ويُسـمى صبياننا بأسمائهم تيمنًا بصفاتهم.

-قالـت وقـد انفرجـتْ أسـاريرُها: "وشـهد شـاهدٌ مـن أهلهـا" الحمد لله الذي أنطقكِ بتلك الحقيقة.

ثم تنهدتْ ووضعتْ كفَّها على كفّي، وحدَّقتْ فيَّ بتأثُّر: كوني على يقين يا مريم! أن دينك هو من أعطى للمرأة كرامةً بعد أن كانت مهانة ولم يسلبها أو يخذلها في أيٍ من نصوصه، وانظري إلى قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله إن كنا في الجاهلية لا نَعدُّ للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسَّم لهن ما قسَّم»[1].

هذا ليس كلامًا إنشائيًا، إنما يُدركه مَن كان له عقلٌ لم يُعِرْه لأيِّ عابر.

=أنا ما أعرتُ تلك الفتاة عقلي، كنت أتسلَّى بمتابعتها فقط! لكن بعد هذه الهزَّة الإيمانية التي تعرضتُ لها؛ عرفتُ أن ديني أثمنُ ما أملك! لذا فإلغاؤها من قائمتي حتمٌ لازم، لتوي أدركتُ التأثُّر الخفيَّ، المتراكمَ شبهةً شبهة!

خالتي، شكرًا لأنكِ بالجوار!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٣).

-العفو مريم، الشكر كله لله، لا تنسي إدمان هذا الدُّعاء: «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»، فإن أحدًا منا لا يستطيع الثبات على الحق إلا أن يُثبِّتَه الله.

=في حفظِ الله.

* * *

## مخرج...

كتب الرافعيُّ إلى أحد تلامذته:

الإنسانُ يتألم بالوهم أكثر مما يتألم بالحقيقة !

# ما تركتُ بعدي فتنةً

د. نعمات بنت محمد الجعفري[١]

حين تُريدين أن تستحوذي على قلبِ طفلة، قولي لها: ما أجملكِ! فتنتِ قلبي! وأضمنُ لكِ أنّها لن تنسى لك مِدحتكِ هذه أبدَ الدهر، تُرى... هل من الممكن أن تعُدَّ كلماتك تلك سُبَّةً تتبرأ منها؟ مَن يفهم المرأة، سيقول لك: مستحيل!

طبيعةُ المرأةِ أنها تحبُّ الكلام الحلو، وتأنس به، ويظلُّ قلبها معه رفَّافًا أخضرَ باسمًا، وهي حين تسمعُ مَن يصفُها بـ (الفتنة) ثم تفرحُ به، فإنها تدركُ جيدًا مرامي تلكَ الكلمة، إذ تومئ من قريبٍ وبعيد أنها أذهلت الناظرَ إليها فما عاد يُطيق رفعَ بصرِه عنها! وهذا صحيح. لذلك قال النَّبِيُّ ﷺ: «ما تركتُ بعدي فِتْنة أضرَّ على الرجال من النساء»[٢].

وكم حضر هذا الحديث في حمأةِ النقاش حول وجوب الحجاب، وضرورته، فإذا ما استدلَّ أحدٌ بهذا الحديث، طاشتْ عقول كثيراتٍ مُعترِضات!

على ماذا؟! لا أدري بالضبط، ربَّما فَهِمْنَ منه انتقاصًا لهن؟ وكثيرٌ من مآسينا سببُها الفهمُ الخطأ.

---

(١) أستاذ مشارك في الحديث وعلومه - جامعة الملك سعود/ السعودية.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠).

ليس سرًا أن المرأةَ تملك من التأثير على الرجل ما لا يملكه سواها، وتُحسِن – على نحوٍ فريد – استعمالَ أقوى سلاح لها في التأثير عليه، والهيمنة على تصرفاته وسلوكه -وهو قوة حبِّه لها- ولذلك فإن المرأة إذا كانت صالحةً أصلحت زوجها غالبًا، أو زادته صلاحًا، أو خفَّفت من فساده، وإن كانت فاسدةً أفسدته غالبًا، إلاّ مَن عصمه الله بقوة الدين والعزيمة والإرادة .

ففي الحديث إثبات صفة القوة للمرأة، والضعف للرجل أمامها، فكيف يكون ذلك انتقاصًا للمرأة؟!

دار قُبالتي هذه الحوار، مع إحدى الرّفيقات التي أُوتيت علمًا ورفقًا وسَعَة بالٍ، في النقاش حول إيضاح الواضحات، فلمّا طرحتْ استفهامها عن: كيف يكون الحديث انتقاصًا لها وفيه إثباتُ قوتها وضعفِ الرجل؟

انبرتْ إحدى الجالسات: لو افترضنا موافقتك بأنها صفة قوة، فما الامتيازُ بكون المرأةِ أضرُّ الفتن على الرجل؟ لماذا المرأةُ هي البلاءُ دائمًا؟

كانت تتحدَّث بأنفاس متلاحِقة، ووجهٍ مُحمَرّ، تشكو ملامحُها غيظَها قبل إفصاحِها باعتراضِها!

=فابتسمتْ لها رفيقتي، وردَّت سؤالها بسؤال، وبهدوءٍ بالغ:

على رِسلك! ما معنى الفتنة أصلًا؟ حتى نستطيعُ النقاش حول أمرٍ نفهمه جميعًا.

-امم، ما أدري! أحس أي شيء حلو هو فتنة، ثم هبط كتفاها من تلقاء نفسها وأهدتْ الرفيقةَ ابتسامةً مفاجِئة.

=طيب، وما المُزعج في ذلك إذًا؟

-لا تسأليني، ما أدري والله! لكن دايمًا لما يقولون هذا الحديث "يرتفع ضغطي."

=باسم الله عليك، سلامتك من كل شر، الأمر أيسر من هذا، لمّا تفهمين المقصود أضمن لك أن رأيك بيتغير تمامًا تمامًا.

هذا الوصف ليس نقصًا أو عيبًا! أنتِ تقولين أنَّ الفتنة: أيْ شيء حلو، وهذا صحيح!

كل نعمة ينعم الله بها على الإنسان، ويهواها قلبه، ويتعلق بها، تصبح مصدر فتنة، كل نعمة تتعلق بها القلوب هي فتنة للإنسان، أي أنه مُبتلى ومُختبر فيها، ومن أجمل الأشياء: وجودُنا -نحنُ النساء- في حياة الرجال، وهذه نعمة عظيمة فيها جانبان؛ جانب سعادةٍ وأُنس، وجانب ابتلاء واختبار، وربَّما يرسُب المرءُ في الاختبار، بأحدِ ثلاثة أوجه:

١. أن يُبتلى ويُفتتن بها فيطلبها بوجه غير مشروع فيقع في

التفريط في عِرضه، وهذه أعظمها، وأخطرُها.

٢. أو يُبتلى ويُفتتن بها، بأن يأسره حُبُّها، والتَّعلُّقُ بها فيكون هواه تبعًا لمُرادها، ورغباتها، حتى لا يُبصرَ غير رضاها وخاطرَها، فيفرِّط في دينه، وإن كانت زوجتَه، حين يحمله حبّه لها على أن يُكدِّر خاطر والدته مثلاً، أو يقصِّر معها، أو تدعوه إلى جمع المال غير مباليةٍ من أيِّ طريق جاء، وهو منقاد لها، لا همَّ له إلا رضاها، وهذه فتنة!

٣. أو يُبتلى ويُفتتن في معاملتها، فيُقصِّر في حقها، ويتعدى حدوده معها، فيقع في بليَّة وعذاب، إذ من معاني الفتنة، وقوعُ صاحبها في بلية وعذاب، ومنه قوْله تعالى: ﴿فَتَنْتم أَنْفسَكُم﴾ أَي: أَوْقَعْتُموها فِي بليةٍ وعَذابٍ[1]، فالحديث يحمل بين كلماته تحذيرًا قويًا من ظلم الرجال للنساء، فهو مُبتلى ومُختبر في التعامل معها، فإن لم يُحسن الرجل إلى المرأة وقع في ضرر عظيم، إن لم يرَه في دنياه، لم ينجُ منه في أخراه!

فالمُتعدي حدوده في معاملته مع المرأة ظالمٌ لنفسه، وقد استقرأتُ الآيات في كتاب الله فلم أجدْ هذا الوصف إلا في آيتين من كتاب الله، وهي تحذيرٌ للرجل من التقصير أو الاعتداء على حق المرأة.

---

(١) تاج العروس، الزبيدي (٣٥/ ٤٩٤).

**الأولى**: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١] .

**والثانية**: في قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١]، وأي ضرر يقع فيه الرجل أعظم من إهلاك نفسه؟

لا أدري كيف استطردتْ صاحبتي في الحديث، حتى بدتْ في درسٍ علمي، لكن سُررت لإصغاء مَن حولها لها، وليستْ عادتُهنّ، ثم ختمتْ درسَها قائلة: المهمّ، عسى المُراد اتَّضح، وأن الفتنة ليست عيبًا أو نقصًا في المرأة؟

-الحقيقة أنه اتضح بصورةٍ صادمة، فاجأتيني بقوة**!**

توقعتُ أن المُناظَرة قد انتهت، حتى قامتْ أخرى تسأل برزانةٍ هذه المرة: فيه سؤال يطرح نفسه، يعني سبحان الله**!** المرأة فقط هي الفتنة؟ والرجل ما يَفْتِن؟

تسارقتِ الحاضرات نظراتهنّ بابتساماتٍ مقتضَبة، وكأنهنّ يقُلن: بالضبط**!** عبَّرتْ عما خجلنا عن الاعتراض بشأنه**!**

=مَن يقول؟ إلا الرجل يَفْتِن، والرجل والمرأة كلاهما فتنةٌ للآخر، بل وصفهما اللهُ تعالى بأعلى من ذلك: بأنهما عدوَّان

لبعضِهما: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، واقتصار الحديث للمرأة دون الرجل لا يعني أنها لا تُفتَن به، بل هو فتنة لها أيضًا ولذلك أمرها الله تعالى بغضِّ البصر: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

إلا أنّ كلَّ عاقلٍ يرى ويسمع ويشعر أن افتتان الرجل وحاجتَه للمرأة أقوى، إذ طَلَبُ الرجل للمرأة أشد وأقوى وأحدّ، وكثيرٌ من الرجال يَفتتنون بالنساء، وقليلٌ من النساء مَن تَظهر فتنتهن بالرجال، والحسُّ يؤيد طلب الرجل للمرأة، فهو يبذل النفس والنفيس في طلبها، ولا يُعرف من النساء إلا قليلًا من يبذل ذلك[1]، ولذا فإن الله تعالى شوّق الرّجال لنعيم الجنة بذكر نساء الجنّة، ولم يشوِّق النساء بمثلِ ذلك.

ثم إنّ هناك ملاحظةٌ دقيقةٌ جميلةٌ آسرة! -تُدرك بعد توفيق الله ببصرٍ ثاقب لمن يتأمل حديث النبي ﷺ - وهي أنّ وصف الفتنة ليس وصفًا لازمًا ذاتيًا للمرأة لا ينفكُّ عنها! لنَصِّ الحديث بكلِّ وضوح: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي...»: أي لن تظهر هذه الفتنة إلا بعد ممات رسول الله ﷺ، فالنساء في عهد رسول الله ﷺ لا يشملهن هذا الوصف، وإن وُجد أفرادٌ تعرضوا لهذه الفتنة في عهده ﷺ،

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة (٣/ ١١٣٥).

فزلَّـت الأقـدام في فاحشـة الزنـا[1]، إلا أنهـا حـوادث نـادرة لا تمثـل ظاهرة اجتماعية غالبة كما هو حادث بعد عهدِه ﷺ.

وفي هذا دلالة واضحة على أن الفتنة وصف غيـر لازم للمـرأة، إنما يظهر في البعضِ منهن في بعـض الأزمنـة، وهـذا فيـه إشـارة إلـى ضـعف الـدِّين الـذي سيظهر في النـاس رجـالًا ونسـاء، فمـنهن مـن ستفرط بحجابهـا، وتظهـر محاسـنها، فيفتـتن بهـا الرجـال[2]، فيقـع الرجل ضعيف الإيمان في المُحرمات.

وكما أخبرنا ﷺ عن صفات السوء التي ستظهر في بعض النساء بعده، فقد أخبرنا أيضًا صفات السوء التي ستظهر في بعض الرجـال بعده مـن الخيانـة وانعـدام الأمانـة، ونقـض العهـود، قـال ﷺ: «إنَّ بَعْـدَكُم قومًـا يَخونـون ولا يُؤتَمَنـون، ويَشْـهَدون ولا يُسْتَشْـهَدون، ويَنْذُرون ولا يَفون، ويَظْهَرُ فيهم السِّمَنُ»[3]. ولـم يَعُدّ الرجال هـذا الحديث تنقصًا لهم.

ومن بين المجلس المُمتلئ بالنسـاء بأعمـار مُتفاوتـة، شـاركتْ امرأةٌ - تبدو في الستين من عُمرهـا - في السـؤال بعـد تفكـرٍ بـدا لـي عميقًـا، وبـدا لـي أكثـر أنهـا تعلـم إجابتـه، لكنّهـا ودَّت لـو تعلَّمـت الشابات في هذا المجلس الإجابة الصواب لمثل سؤالها:

---

(١) كما ورد في قصة مَاعِز بْنُ مَالِكٍ، أخرجه مسلم (١٦٩٥).
(٢) وقد مضى التوسُّع في مناقشة معنى (الفتنة) في مقال: التصفيق للنساء.
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

=هل يعني الحديث أن حُبَّ النساء والتعلُّق بهن شرّ؟

-المعذرة يا خالة، من أين شعرتِ بهذا؟ أو بالأصح: كيف فهمتِ ذلك؟

=لأن الحديث يقول إن النساء فتنة.

-صحيح، والفتنة تُطلق على الخير والشر، يقول الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وإجابةً على سؤالك الذي أعجبني صراحةً، فإن: حُب النساء والتعلق بهن ليس شرًا، ومَن قرأ القرآن وجد أجمل الأوصاف في نسبة المرأةِ للرجل وعلاقته بها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فإن الرجل متعلقٌ بالمرأة، ميّالٌ إليها، فهي سَكَنُه، وإليها يفيءُ حين تبهتُه مُصيبة، أو تختلط عليه الأمور.

وككلّ شيء؛ فإن الشرَّ إنما يكون في الإسراف في الطلب حتى يكون النساء همُّه وشغلُه الشاغل، وفي طلب الحرام، وفي طلب الجمال من غير العمل بوصية الرسول ﷺ: «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[1].

و"الغُنم بالغرْمِ" كما تقول العرب، فإن فتنةَ النساءِ أشدّ الفتن!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦).

لذا قدَّمهن القرآن على جَمِيع الشَّهَوَات، للرغبة والإقبال والمحبة التي جبل الله قلبَ الرجل عليها تجاه المرأة، فإن بعض الرجال قد يستهين بكل شيء في سبيل الوصول إلى المرأة التي يهواها، كما أن: «زوجة الإنسان تدعوه إلى الشر وأقله حب الدنيا والتنافس فيها، وفي ذلك حكايات غيرُ خافية، بل كل إنسان قد جرّب صِدق الخبر في نفسه، والحديث إعلامٌ للعبد أن يستعد لهذه الفتنة»[1].

فكم من أبٍ ذاق من أولاده المرارة والألم، وهم مُهجة قلبه، وكم من ولد عقّ والديه وهما سبب وجوده بعد الله وطريقه إلى الجنة، في سبيل إرضاء زوجته!

والدنيا حلوةٌ خضِرة، والناس مفطورون على حُبها، والنساءُ أجمل ما فيها، والرجال مفطورون على حُبهنّ والافتتان بهن، لذا كان التحذير من افتتان الإنسان بالمحبوبات عن الآخرة، وليس المقصود اجتنابهنّ، بل المقصودُ اجتنابُ الافتتان بهن والتعرض لهن بالحرام.

وإن تعجبي فاعجبي ممَّن يستنكر أقوال رسول الله ﷺ وأحاديثه التي خصّ بها المرأة، ويرى فيه تنقصًا في حقها، في حين يسمّي أرسطو - ومَن هم على شاكلته من الفلاسفة - بمعلم البشرية الأول! كيف يخلعون عليه هذا اللقب وهو الذي يقول:

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير، الأمير الصنعاني (٩/ ٣٧٥).

«جسد الأنثى ليس شيئًا جذابًا بل هو موضوع قذر، وإنجابُ الأطفال ليس مدعاة للبهجة والفرح، بل هو علامة انهيار».

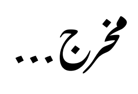
«إن جمال المرأة لهو الشرك الأعظم؛ ابتعد عن الفتاة الشابة مثلما تبتعد عن النار»!

«إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم تشاهدون موجودًا بشريًا، بل ولا موجودًا متوحشًا؛ لأن من ترونه هو الشيطان نفسه، وإذا تكلَّمتْ فما تسمعونه هو فحيح الأفعى»[1].

أين تلك الأقوال من قوله ﷺ حين جعل خيرية الأمة مرتهنةً بكثرة نسائها: «فإن خيرَ هذه الأمة أكثرها نساءً»[2]. وخيريَّة المتاع في المرأة الصالحة: «الدُّنْيا متاعٌ، وخيرُ مَتاعِ الدُّنيا المَرْأَةُ الصالِحة»[3]، وكانت آخر وصية لرسول الله ﷺ الوصية بالنساء حين قال: «اسْتَوْصُوا بِالنِّساء»[4].

* * *

(١) يُنظر: "أرسطو والمرأة" "أفلاطون والمرأة" "الفيلسوف المسيحي والمرأة"، إمام عبد الفتاح إمام، فقد حشد فيها عددًا من هذه الأقوال في المرأة.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٩).
(٣) أخرجه مسلم (١٤٦٧).
(٤) أخرجه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨).




فما لكم كيف تحكمون ؟!

# تزوجني ﷺ وعمري ست سنين

هناء بنت عبدالله المطوع[1]

أيّامُ المنتديات، أيامٌ خلَت، ربّما لم يُدركها صغار اليوم – مواليد العقد الأول من الألفية الجديدة (٢٠١٠م) وما بعدَها – إذ في هذه المدة تحديدًا بدأ ضمورُ المنتديات – أمّا مَن سبقهم، فهُمّ أشدُّ لصوقًا بها، وأول ذكرياتهم في الشبكة العنكبوتية: المنتديات! وكثيرٌ من المُبرَّزين في شبكات التواصل الآن، أنضجتْهم تلك المنتديات، وقد صار بعضها أو كثيرٌ منها في عِداد الذكريات، إذ لا وجود لها إلا في الأذهان الآن! وقد كانت – البارحةَ – مِلْءَ السَّمع والبصر .

تحديدًا أتحدَّثُ عن بداية الألفية الجديدة، أي: قبل عشر سنواتٍ من الآن تقريبًا. لا أنسى تلك الليلة، حين فاجأْتنا إحدى المشرفات بموضوعٍ جديد، تزفُّ لنا فيه نبأ زفاف إحدى أخواتنا – أخوات المنتدى – فصارتْ ضجَّةٌ لا سكونَ معها، وتوالت الردودُ مباركة داعية، وعمَّت الفرحة أرجاء القسم في ذلك المنتدى.

عمرُ العَروسِ المُهنَّأِ بها، ثمانية عشر عامًا، وها هي توشك على التخرُّج من المرحلة الثانوية، عرفتُ هذه المعلومة غيرِ المؤثِّرة من

(١) باحثة دكتوراه في الفقه المقارن - جامعة الكويت.

الـردود المتـأخرة، بعـد مضـيِّ يـومٍ علـى انتشـار الخـبر، إذ كتبـتْ إحداهن بصفاقة:

-ألـف مـبروك، والله يعينـك، دعـوتين مـع بعـض ☺ تـوّ العمـر قدّامك! لعلّه يستاهل.

لا أدري كيـف يسـوغ للـبعض أن يُـدلي بنصـائحه في مناسـبةٍ كهذه، وهو ليس الوالد ولا الوالـدة، ولا حتـى شـخصٌ مُقـرَّبٌ مـن صاحب الفرَح! بل غايـةُ مـا تعـرفُ عنهـا أن اسـمَها "وردة الربيـع" مثلًا! الزوج يستاهل والا ما يستاهل، ما شأنُك؟

معذرةً للاستطراد، تجدَّد غيظي وأنا أتذكرُ الحادثة... تلا ذلـك الردّ، ردُّ عضوٍ آخر، وقد اقتبس كلامَ تلك النّاصحة الخبيرة!

-توّ العمر على وحدة عمرهـا ثمانيـة عشـر؟ وينـك مـن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي متزوجة وعمرها تسع سنين!

خمّنتُ أن داحسًـا والغـبراء توشـك علـى الانبعـاث مـن جديـد، فحدَّثتُ الصفحة بعـد خمـسِ دقـائق؛ لأن ناصـحًا جديـدًا بـالجوار ولا ريب!... وقد صدق تخميني:

-مباركٌ للأخت، الله يوفقك، وأقول للأخ أعلاه: قُل ما شئت، لكن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لـم تتزوج في هذا السن، فلا تستدلّ علـى أفكـارك بأشياء لا تصح! لا يُتصور أصلًا أن طفلةً في التاسعة، تكـون زوجـةً

تُحسن أمور النساء وشؤون البيت، وتحوي العلمَ الكثير... كما الحال مع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قرأتُ ردَّ الفاهم الأخير، ولا أدري أأضحك أم أبكي؟! يعني لأنَّ عقلَه لا يُحسن "تصديقَ" زواج ابنةٍ في التاسعة، يأتي ويُسارع في تكذيب الخبر، والاستدلال على صوابِ رأيه في استبعاد حصولِ ذلك... يا ضَيعة العلم!

ولولا أن الموضوعَ معقودٌ لأجل تهنئة الأخت وفقها الله، لكنتُ عقدتُ مجلسًا لتوضيح أن القرار قرارَ أصحاب الشأن، لا أهلَ المنتدى، وأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قد عقَد عليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي بنتُ ست سنين، ثم ذهبتْ معه وهي بنتُ تسعِ سنين، مشفوعًا بالأدلة التي يحتكمُ إليها العقلاء، بدلًا من الآراء التي تصيبُ اليوم، ويتبيَّن خطؤها غدًا!

وقد فعلتُ! لكن في موضوع مستقل، ليتبيَّن للقراء الآخرين، أما الأخَوَان المتحاوِران فلم يكونا هدفي أصالةً.

لم أُكثِر الكلام حيث أنشأتُ موضوعًا جديدًا في المنتدى - رحمه الله - بل بدأتُه بالترحيب بالجميع، ثم أخبرتُهم أني أنوي بيان سنِّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين تزوجها نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبياني لهذا الأمر سيكون عبر أسئلتكم، وسأجيبُ عليها تباعًا بالأدلة، فمَن وجدَ دليلًا فليقبله أو يردَّه بدليلٍ آخر صحيح، ومَن لا دليل صحيح معه

من نقلٍ أو عقل، فلا مكان له بيننا...اتفقْنا؟

فكـان أن توالـت الـردود موافِقـةً فقـط، أو موافقـةً وبصـحبتِها سؤال، وقـد وردتْني أسئلة كثيرة جمعتُها في خمسةِ أسئلة، ليس واحد منها جديدًا.

**أولُ الأسئلة :**

-أعتقـد أن سـن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قـد ورد في أحـد الأحاديـث، فمـا الحديث؟ وهل هو صحيحٌ أم لا؟ لأني طالبٌ في المرحلة الثانويـة، ولا أستطيعُ التفريق بين الصحيح والضعيف.

=أهلًا بك، سؤال منطقيٌ، فلنبدأ الحكايةَ مـن أوَّلهـا، أيـن ذُكـر الحديث؟ هل هو صحيحٌ أصلًا؟

أسوق لكَ الحديث بتمامه، لتعيشَ جوّ العَروس في ذلك العصر الزكـيّ، وكيـف نمـا إليهـا الخـبر؟ ثـم متـى زُفـتّ إلـى النبـي ﷺ؟ وسأرفقُ لك شرحَ ما يصعبُ عليك من كلمات.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

«تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بنـي الحـارث بـن خـزرج، فوعكـتُ فتمـرَّق[1] شـعري، فـوفّى

---

(١) انْتَثَرَ وَتَسَاقَطَ مِنْ مَرَضٍ أَوْ غَيْرِه. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٣٢٠/٤).

جميمة[١]، فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة، ومعي صواحب لي، فصرختْ بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج[٢] حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذتْ شيئًا من ماء فمسحتْ به وجهي ورأسي، ثم أدخلتْني الدار، فإذا نسوةٌ من الأنصار في البيت، فقُلنَ: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتْني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضُحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين»[٣].

هل فهمتَ كيف كانت عائشةُ رضي الله عنها مُتعَبةً، حتى أثَّر على شعرها فتساقط، ثم لما بدأت بالتعافي، نادتْها أمُّها وهي تلعب بين صاحباتها، فجاءتها وأنفاسُها تتلاحق، ثم زيَّنتها أمُّها بأن مسحتْ على وجهِها ورأسها بالماء، وأدخلتْها البيت، فإذا بعض نساءٍ من الأنصار من أهل المدينة، فدعونَ لها بالبركة، وأكملنَ تزيينها، ثم فاجأها دخوله ﷺ، وكان الوقت ضُحى.

هل الحديث صحيح؟ نعم، بل في أعلى درجات الصحة؛ لأنه

---

(١) وَفَتْ لِي جُمَيْمَة: َأيْ كَثُرت. والجُمَيْمَة. تَصْغير الجُمَّة. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (٣٠٠/١)، قال الحميدي في تفسير غريب ما في الصحيحين (٥٢٨): " وجمة الْإِنْسَان مُجْتَمع شعر ناصيته والناصية قصاص الشّعْر والوفرة والجمة إِلَى الْأُذُنَيْنِ فَقَط فَإِن زَادَت فَوق ذَلِك لم يقل وفرة".

(٢) النَّهْجُ بِالتَّحْرِيكِ، والنَّهِيجُ: الرَّبْو وتَواترُ النَّفَس مِنْ شِدَّة الحَركة أَوْ فِعْلٍ مُتْعِب. النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير (١٣٤/٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٩٤)، ومسلم (١٤٢٢).

في صحيحي البخاري ومسلم.

-السؤال الثاني: عمرُها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا صغيرٌ جدًا، والحديث المذكور فيه تعارضٌ بينه وبين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمر باستئذان البِكر في الزواج، وفي هذا تعدٍّ على الطفولة وسلب المرأة حرية الرأي والاختيار! لذا ربما ثمة احتمال لضعف الرواية التي ذكرت العمر على وجه التحديد.

=حسنًا، هذه أسئلةٌ ملغَّمة، أربعة أسئلة في سؤال واحد! سآخذها بالتفصيل...

**أولاً**: الأمر ليس خاصًا بتزويج المرأة الصغيرة، فهناك صِبية تزوجوا صغارًا، فهذا ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زوّج ابنه وهو صغير[1]، فهل يقال أن فيه ظلمًا وتعدٍّ على المرأة خاصة؟!

**ثانيًا**: أنتِ مُستعظمةٌ زواجَها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في هذا السنّ؟ سأفاجئكِ إن أخبرتكِ أنه قد خطبها رجلان قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! وقد اتفقنا ألّا نذكر شيئًا إلا مصحوبًا بدليل، وسأذكره بعد قليل، السؤال الذي يطرح نفسه:

---

(١) فقد روى البيهقي من طريق سعيد بن منصور، عن سليمان بن يسار أن ابن عمر: زوج ابنا له ابنة أخيه وابنه صغير يومئذ، وقال البيهقي: وهذا محمول على أن أخاه أوجب العقد وابن عمر قبله لابنه الصغير، يُنظر: السُنن الكبرى للبيهقي (٧/٢٣١، ٢٣٢)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦/٢٢٨).

لماذا أقول لكِ أنها قد خُطبت قبل النبي ﷺ؟ حتى تري بأم عينيك أنه في ذلك الوقت والمجتمع والناس، كان العُرف ساريًا، والعادة قاضية بأن زواج الصغار والصغيرات -في تقييمنا هذا اليوم- أمر مقبول وعادي وغير مُستنكر، بل هو العادة، وغيره غريب!

فعائشةُ رضي الله عنها قبل خطبة النبي ﷺ لها كانت مخطوبةً من جبير بن المطعم بن عدي قبل إسلامه؛ وذلك قبل تحريم زواج المسلمات من الكفار[1]، فالأمر في صلاحية عُمُر عائشة رضي الله عنها للخطبة كان مقبولًا في المجتمع، ولم يكن الدافعُ له الفقر أو الدين أو أي اعتقادٍ خطأ سوى أنه من عاداتهم!

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد خطب من عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه ابنته أمَّ كلثوم، فزوّجه إيَّاها وهي جارية صغيرة تلعب[2]، وزوّج غيرُ واحد من أصحاب رسول الله ﷺ ابنته وهي صغيرة[3]، فكان إنكاح الآباء الصِّغار قديمًا جائز عليهن ولم يختلف فيه أحد[4].

فهو ليس خاصًا به ﷺ وليس مَعيبًا أو أمرًا شنيعًا أو مُنتقدًا، إذ

(١) يُنظر: أحكام القرآن، ابن العربي (٢٣١/٤).
(٢) ينظر: مصنف عبد الرزاق (١٢٦/٦، ١٢٧).
(٣) الأم، الشافعي (١٦٣/٧).
(٤) يُنظر: اختلاف الحديث (٦٢٧/٨) وهو منسوب للشافعي رحمه الله.

لو كان كذلك لما تغاضى عن هذا الخطأ أبو لهب وأبو جهل وغيرهم من أعداء الدين المُتربصين له الحريصين على انتقاده والتنقص منه، الذين كذبوا عليه وقالوا عنه ساحر وشاعر وكاذب، فهل يُتصور أنهم سيتركونه على هذا الفعل لو كان غير سوي[1]!

وعائشةُ رضي الله عنها تسبقُنا بقرونٍ من الزمن، فربَّما يعسرُ تصوُّر ذلك لبُعد الزمن، وأنا أدلُّك على ما يسهُل لك أن تتخيليه: من فضلِك، اسألي جدَّتك، كم كان عمرُها حين تزوَّجتْ؟ وسيُحلُّ هذا الإشكال بضحكتِها الخجلى لكِ وهي تُخبركِ عن سنِّها.

حين طرحتُ هذا السؤال على صاحباتي قلنَ لي بالإجماع، إن جدَّاتهن تزوجن وأعمارهن ما بين إحدى عشر وثلاثةَ عشر سنة! وهذا قبل سبعين سنةٍ من الآن تقريبًا، فكيف بمَن سبقنا بأكثر من ألفِ سنة؟

وهذا الشافعيُّ رحمه الله (ت٢٠٤هـ) يقول: «أعجلُ ما سمعت من النساء يحضن: نساء تهامة، يحِضْنَ لتسع سنين، وقال أيضًا: إنه رأى جدّةً بنت إحدى وعشرين سنة، وأنها حاضتْ لاستكمال تسع سنين، ووضعت بنتًا لاستكمال عشر، ووقع لبنتها مثل ذلك»[2].

ولو أردْنا أن نوسِّع دائرة الحديث، ونخرُج عن حدودِ شبه

(١) يُنظر مذكرة دورة قواعد التعامل مع الشبهات الفكرية المعاصرة، مطلق الجاسر (القاعدة الخامسة).
(٢) يُنظر إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني (٤/٤٠٠، ٤٠١).

الجزيـرةِ العربيَّـة؛ فـإن زواج الصـغيرات -أؤكـد: هـذا الوصـفُ في تقييمنـا الآن- قـد وُجـد في كـل مكـان في العـالم، فكانـت الفتيـات يُخطبن في سـن البلـوغ أو قبلـه، ففـي اليونـان، شُـجِّعَت مُمارسـات الـزواج المبكـر والأمومـة المبكـرة للفتيـات، وفي الصـين أثنـاء الإمبراطورية، كان زواج الأطفال هو الزواج الطبيعي، فهذه إيزابيل المولـودة في (١٣٨٩م) وهـي ابنـة شـارل السـادس ملـك فرنسـا، تزوجت في عام (١٣٩٦م) من ريتشارد الثاني ملك إنجلترا[١]، أي أن عمرهـا كـان سـبع سـنوات، فهـل يقـال: إن الفقـر دافـعٌ للـزواج المبكر؟ أم الدين النصراني؟

**ثالثًا:** أما قضيةُ احتمال أن يكون تحديدُ العمر غيـرَ دقيـق؛ ومـن ثَم يُطعن في صحَّة الحديث؛ فهـذا مـدفوعٌ بكـون الحـديث جـاء في الصحيحين، ومَن عرَف دقـة المحـدِّثين، والشـروط الصـارمة التـي وضـعوها لقبـول الحـديث، عـرف أن الحكـم بصـحّة الحـديث أو ضعفِه لا يأتي جُزافًا، ثم إن قصّة خطبتها ﵂ ابتداءً كانـت اقتراحًـا من الصحابية خولة بنت حكيم ﵂ لجبر النبـي ﷺ وتسـليته مـن الحزن الذي أصابه بعد موت زوجته خديجة ﵂ حيث: «جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، قالـت: يـا رسـول الله ألا تزوج؟ قال: مَن؟ قالت: إن شئت بكرًا، وإن شئت ثيبًا؟ قال: فمَـن البكر؟ قالت: ابنة أحب خلق الله عز وجل إليـك عائشـة بنـت أبـي

(١) https://en.wikipedia.org/wiki/Isabella_of_Valois

بكر، قال: ومَن الثيب؟ قالت: سودة بنت زمعة...» الحديث[1].

فلما علِمت من حاله حبَّه لصاحبه راعتْ مشاعره وأشارت عليه بالزواج من ابنة حبيبه وهي يومئذ صغيرة بنت ست سنين؛ فهل يُتصور أن ترضى امرأة بإهدار حق امرأة فضلاً عن كونها طفلة؟ ثم تقولُ وتقرُّ صاحبة القصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه ﷺ بنى بها وهي بنت تسع سنين فهل ننكر هذا العمر؟ مَن الأعلم بعمر والدتِك؟ هي أم الحاضرون؟ قطعًا هي! فكذلك عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تحكي سِنَّها وقتَ زفافِها، وصاحب القصة هو أعلم بتفاصيلها ودقائقها! فما وجه الاعتداء على المرأة وحقوقها؟ إذا كانت المرأةُ صاحبة الحق قد رضيتْ وأقرت وحثَّت وشجعت؟[2] وهل يُعقل أن تهنِّئها النساءُ على ذلك ويقولون على الخير والبركة وهي مهدرة الحق؟[3]

لذا فمن المُفيد حين تبلغُنا حادثةٌ من الزمن البعيد، أن ندرُسَها في ظروف ذلك الزمن، لا بظروفنا اليوم، ومَن يُصرُّ على معالجة

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧٦٩)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٢) يُنظر: مقال: زواج النبي بالسيدة عائشة عند العلماء والعقلاء والمنصفين د. محمد رمضان أبوبكر محمود - زكريا عثمان عباس.

(٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «تزوجني النبي ﷺ، فأتتني أمي فأدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر» أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب النكاح، باب الدعاء للنساء اللاتي يهدين العروس وللعروس برقم (٥١٥٦).

واقع الأمس الغابِر، بأدوات اليوم الحاضر، كمَن يُصرُّ على السَّير بسيارةِ الثمانينات، أو ارتداء أزياء السبعينات!

**رابعا:** وأمّا كون زواجه ﷺ من عائشة رضي الله عنها فيه مخالفةٌ لأمره باستئذان البِكر، حين قال ﷺ: «لا تُنكح البكرُ حتى تُستأذن، ولا الثيبُ حتى تُستأمر» فقيل: يا رسول الله، كيف إذنها؟ قال: «إذا سكتت»[1].

فالبكرُ التي تُستأذن هي البكر البالغة؛ لأن مَن دونها لا تعي ما الإذن، فيستوي سكوتها وسخطها[2]، ومثال ذلك: في المولود الصغير يُقتل أبوه، فيُحبس قاتله ويُوقف حتى يَبلُغ الولدُ فيعفو أو يُصالِح أو يَقْتل؛ لأن ذلك لا يكون إلا بأمره، أما حين كان صغيرًا فإنه لا أمر له فُينتظر حتى يكون له أمر[3].

وعائشة رضي الله عنها قد روت الحديث في استئذان البكر، قالت: قال رسول الله ﷺ: «البكرُ تُستأذن» قلتُ: إن البكرَ تستحيي؟ قال: «إذنها صماتها»[4]، وقد عاشت فترة طويلة بعد النبي ﷺ، فقد مَات النَّبِي ﷺ وَلها نَحْو ثَمَاني عشرَة سنة، وَعَاشَتْ بعده قَرِيبًا من

(١) أخرجه البخاري (٦٩٦٨).
(٢) يُنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر (١٩٣/٩).
(٣) يُنظر: اختلاف الحديث، الشافعي (٦٢٧/٨).
(٤) أخرجه البخاري (٦٩٧١).

خمسين سنة[1]، فلو كان حقها مسلوبًا في حرية الرأي واختيار الزوج لنُقل ذلك عنها، وعائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لها شخصيةٌ حاضِرة، ورأيٌ مسموع، ولسانٌ بليغ، لا يعجز عن الإخبار بذلك، اللافتُ في الأمر أنه جاء عكس ذلك فكانت تفخر بزواجها من النبي ﷺ، فعنْها قالت: قلت يا رسول الله! أرأيتَ لو نزلت واديًا وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجَرا لم يؤكل منها، في أيِّها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في الذي لم يرتع منها»، تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها[2]، وقد فهِم ﷺ تلميحَها بلا شك! فأجابها إلى ما طلبتْ، وأعطاها ما تُحبُّ من الكلام، ويرُضيها.

وأقلُّ ما يُتصور فيمَن أُجبرت ولم ترضَ أن تسكت ولا تمدح! ولكن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها تتكلم عن رحمته ورأفته وحنانه ولطفه ﷺ وتبالغ في الثناء عليه ﷺ، فهذه ليست حال من يُقهر ويُهان! بل يدل على اغتباطها الشديد، وأنها كانت راضيةً منه وعليه ومعه، وقد رأت منه ما يسرُّ الزوجةَ من زوجها.

وأيُّ حظٍّ أكبر من أن تُقاسم عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خيرَ الخلقِ وأرفعَهُم؟

وهكذا رأى القُرّاءُ، صحَّةَ الحديث المعيَّنِ فيه سنُّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

---

(١) عمدة القاري، العيني (١٦/ ٢٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٧٧).

حين زفافِها، وكونَ العُرفِ قاضيًا بذلك في وقتهم، وأنْ لا تعارُض بين زواجه ﷺ منها وأمرِه استئذان البِكر، خاصةً أن الراوية لهذا الحديث هي عائشةُ نفسها رضي الله عنها!

بل وكانت تُفاخر بهذا الزواج، ولم تشعرْ يومًا من الدهر بسلْبِ حق، أو اعتداءٍ على طفولتها، أو إجبارٍ على شيءٍ لم تُردْه.

* * *

## مخرج...

يتعلم الإنسان بطريقتين...

القراءة... ومُصاحبة مَن هم أذكى منه !

# هلّا بِكرًا

جنّة بنت إبراهيم الشرماني[1]

ثمةَ نوعٌ من الصديقات، هُنَّ أخواتٌ في ثوبِ صديقات! يتعمَّقُ إخاؤكما حتى إنكما لتَتَشاركان أخصَّ التفاصيل العائلية، بالضبط كما كان حالي مع مُنى... والليلةُ لقاؤها مع بناتِ دفعتها من كلية الاقتصاد، بعد أن مضى على تخرجهن خمسُ سنوات، وتُحِبُّني أن أحضُر رغم أنه لن يحضُر من خارج الكلية – طالبات وأستاذات – أحد!

–والله مُنى شكلي مُحرج، بأي صفةٍ أحضُر الاحتفالَ اليوم؟

=بصفتك أختي وصديقتي، وستعينني على اختيار عَروسٍ لأخي!

–هكذا إذًا؟ ولمَ تأخرتِ في إخباري بهذه المهمة الخاصة؟

=ما تأخرت ولا شيء، الفكرة طرقتْ بالي مؤخرًا، وما يحتاج لها استعداد ووو... وأصلًا عزمنا بعض أقاربنا، فلا داعي لاصطناعك الخجل من بنات دفعتي. وهكذا انهالتْ عليّ بدفاعٍ لا انتهاءَ له، فما كان مني إلا أن وافقتُ بحماس تبعًا للمهمة المُلقاة على عاتقي.

(١) محاضر في جامعة العادل للعلوم التطبيقية والإنسانية/ اليمن.

أُدرك أن منى اختارتْني كوني صاحبتها القريبة، التي تطمئن إلى معاييرِها وذوقها ومناسبة العَروس - المجهولة حتى الآن - لبيتهم...إلخ، اصطحبتْني معها للحفل، وأنستُ جدًا فيه، على خلاف ظني بأني سأغدو غريبةً بينهم.

بعد العشاء؛ انزويت للركن البعيد، أردتُ قليلًا من الهدوء بعد الصَّخب المستمر طيلة الحفل، ثم إنني تعمدتُ الجلوسَ على مقرُبةٍ من ثلاثِ نسوة، ظهرنَ لي مُختلفات، وقارٌ بالغ، وهيئةٌ توحي أنهنّ لسن طالبات حديثات التخرج أو حتى عتيقاتِ التخرج.

استأذنتُهنّ في الجلوس، فأذِنَّ لي برحابةِ صدر ولُطفٍ غامر، فعرَّفتُ بنفسي: أهلًا بكم، سعدتُ جدًا بالحفل، اليوم حفل صاحبتي مُنى، وأنا صاحبتها هيا.

-بادلْنني التعريف بأنفسهن، وفعلًا كُنَّ كما خمَّنتُ! لسن طالبات! إنهن أستاذاتٍ في الجامعة، من تخصصاتٍ مختلفة، إحداهنَّ تخصصها شرعي، د. سعاد، وحنان، وسلوى.

بعد جلوسي، أقبلتْ إحدى الحاضرات تصطحبُ قهوتها، مع عِدَّتها من حلوى وأقداحٍ أنيقة، فجلستْ بجوارنا، وهكذا صرنا خمسةً، ننعم بجوٍ هادئ جميل.

-بادرتْنا بابتسامة: وش رأيكم تجرّبون قهوتي؟

=ما في عاقل يردَّها منك!

-فنجان فقط من فضلك، كثّرت قهوة اليوم، الله يستر يبدو أن النوم في طريقه لتوديعي هذه الليلة.

سادَ صمتٌ لمدة خمسِ ثوان، وما أطول الوقت حين يصمتُ المجلِس! لذا مارستُ هوايتي في كسرِ الهدوء القاتل واختلاق أي "سالفة"!

-خوش قهوة، تسلم يدك، مَن معي؟ وما قسمك؟

=جاءني صوتُها: أمل، لكني لست على طريقتكم، ولا أحب الدراسة... حوِّلي سؤالك لغيري لعله يفيدك!

أُسقِط في يدي -أستاهل ما حصل- لم يكن في نيتي إلا كسر الصمت، ما الذي يجري؟ واضحٌ أنني آلمتُها بسؤالي لكن لا أدري ما السبب بالضبط؟ أعتقدُ أني لطيفةٌ جدًا في استفساري عن اسمِها، خطر ببالي أنها لم تُكمل دراستها، وكان الخيار الوحيد الذي طرأ عليّ، فانهمرتُ بفلسفتي:

-يا حبيبتي! الشهادة ليست مقياسًا مطّردًا للمتعلم والمثقف، وفي احترام الناس له، فضلا عن مكانته عند الله... آسفة جدًا إن كان سؤالي غير لائق.

=حنانيكِ، بل أنا آسفة! كرهتُ كلَّ شيء بعد طلاقي!

شعرتُ أنها موجوعة حتى أقصى نقطة في خاطرها، لكنني صغيرةٌ على اختراعِ فلسفةٍ بهذا الشأن، فأنقذني الله بصوتِ د. سلوى: قهوتك ولا ألذّ منها! ما يُحسنها إلا شخص يتذوق الحياة، إذا أذنتِ تقولين لي فقط: ما الذي آذاك بعد طلاقك للحدِّ الذي جعل الحياةَ كلَّها كعتمةٍ في خاطرك لهذا الحدّ؟

اعتدلتُ في جِلستي، ووضعتُ ركبتي على الأخرى، وشعرتُ أنني في جَلسةٍ فكريةٍ أسرية دافئة.

=انطلقتْ في حديثها: تطلقتُ منذ سنتين، ولم أحزن لطلاقي فقد آثرت الفراق؛ لأنه رجل لا يُصلي ولا أراه إلا... سأتركه وشأنه، منذ طلاقي لم أُحبّ أن أذكره بشيء، وإن كان حقًا؛ المهم في نظري أنّ اختياري للطلاق كان صائبًا، وسيرزقني الله عوضًا جميلًا فتأملت العطاء وارتديت رداء الصبر، وانشغلتُ بمشاريعَ أخرى تملأ وقتي.

-حلو جدًا، هذا كلّه جميل، لماذا كرهتِ الحياة إذًا؟

=أقبلتُ على الحياة بكرمٍ من الله وحده - نعم وحده! - بعد مشقةٍ ليست باليسيرة، وليالٍ مُحمَّلةٍ بدمعٍ لا انتهاءَ له، لكن كان أمامي خياران: أحيا سعيدة، أو أحيا في أسمالِ حزينٍ ينتظر الصباح حين يُقبل المساء، ويتوخى الليل حين تُشرق الشمس، والخيار الثاني مُرٌّ كريهٌ مُميت! ومَن جرَّب تجربتي عرف معرفتي.

ظننتُ وقتها أني ودَّعتُ الأسى والحزن على الفائت، ولـو كـان الفائتُ سيئًا، ما الذي حصل؟

اشـرأبتْ أعناقُنـا لهـا، وبحركـةٍ لا إراديـة نظـرتُ لسـاعتي فـإذا الوقـتُ قـد تـأخر، دعـوتُ الله في سـرِّي أن تتـأخر منـى في منـاداتي للرجوع للبيت، إذ بلغتُ ذروة التشوُّف لقصة هذه الفتاة الدُّرة!

-بصبرٍ نافد: تكفين، وش صار؟

=ابتسـمتْ ابتسـامةً صـفراء صـحبها تنهيـدةٍ عميقـة: قـابلني المجتمع في كثير مـن الأحـايين بـالرفض أو الصـدِّ، وكـأني ارتكبـتُ جريمـةً لا تغفـر! وأكثـر مَـن أوجعتنـي كلماتهـا جـارتي، مـا أكثـر مـا تقول: "الرجال لا يطلبون المُطلقة، حتى الرسول ﷺ لام صـاحبه على زواجه بالمطلقة، وقال له: «هلّا بِكرًا»؟

وكل مَن يأتي لخطبتي ثـم يعلـم أني مطلقـة يعـود القهقـرى دون تردد!

دار بخلـدي ضـعف الحـديث، لكـن – وقـد غلبتْهـا عَبرتُهـا – وجدته صحيحًا[1]، والحمد لله على كل حال.

=وددتُ لو أفهم: لِمَ يُعاتبه ﷺ بعد زواجه؟ علام هذا التحيـز كله للأبكار؟ أين التكافل والتكافؤ والتوافق؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٤٧).

ظلّت أسئلتي مُعلقةً، حتى توصلتُ في صباحٍ ماضٍ إلى أن المجتمع لا يُريدني وأمثالي، هذه هي الحقيقة، والحقائقُ عادةً ما تكون مؤلمة، لكن علينا أن نتقبلها رغم صعوبتها: الفرصةُ واحدة فقط، فإن كنت محظوظةً وجاء الزوج رائعًا مناسبًا كانت لك السعادة، وإن كانت الأخرى فقد انتهى السباق، فلم يعد فيك مزية، لأنك مُستعملةٌ سابقًا... معذرة على إسماعِكم هذا لكنها الحقيقة! وأنا أموتُ ألف مرة حين أقول هذا.

كنّا أربعتَنا كأن على رؤوسنا الطّير، ما أشدَّ توجُّعنا لمَن لا حيلةَ لنا في تخفيفِ ألمه، هكذا حدَّثتْني نفسي، لا أحد أكثر مني يُحب أن يُنظِّر على الناس، لكني في هذه اللحظة، حرفيًا: غارتْ كلُّ كلماتي، فضلًا عن انعدام خبرتي في أمور كهذه.

تسلَّمتْ الجلسة د. حنان، بحكمةِ أم، وخبرةِ مُجرِّبة: يا حبيبتي يا أمل، مَررتُ بمثل تجربتك، ثم تزوجتُ والحمد لله، والآن أنا جدَّة، في يومٍ ما اسودّت الدنيا في عيني تمامًا كما حصل معكِ، أقول لكِ هذا كي تتفهميني حين أتحدَّث، فالمُجرّبون يفهمون بعضهم، خلافًا لغيرهم، سؤال من فضلك:

–هل تعجز شريعة كاملة لم تشهد البشرية مثلها أن توفر بيئة وحياة سعيدة لشريحة من الناس تدعى المُطلقات؟ وربنا جل جلاله تولى رزق الحوت في البحر، والنمل تحت الصخر؟

=أرجوك دكتورة! سؤالك معروفٌ جوابه، لكن سؤالي حول: حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هلّا بكرًا»، أليس فيه التحيز لنكاح البكر دون الثيبات؟ لم يُراعِ قلوب المطلقات وهو يستحث جابر! ماذا عسى جابر أن يستفيد من الاقتراح بعد زواجه إلا شعورَ مَن فاته كونه لم ينكح بكرًا!

-خذيني بلُطفك يا ابنتي، ثقي أني سأجيبك على كلِّ أسئلتك، وحتى تهدئي بعض الشيء: لو كنتِ في أرض خضراء والجو بارد جدًا، وكاد الضباب أن يخفي معالم الطريق هل تسيرين فجرًا؟ أو تنتظرين بزوغَ الشمس لتستمتعي بجمال الطريق وتَسلَمي من التعثر فيه؟

=طبعا أنتظر حتى لا أسقط على الأقل!

-رائع! إذًا لنخرج من ألمك وتجربتك ومجتمعك الذي رفضك - فهو كالضباب يحجبُ رؤيتكِ الآن - ونتخيَّل حياة الصحابة... كيف كانت تعيش المُطلقة بينهم؟ فنجمع صورة متكاملة للمُطلقة في الإسلام أول مجيئه فنرى بأعينِهم - قبل أكثر من ألفِ سنة - قبل أن نحتكم لحالة من ملايين الحالات، ثم نفهمُ من خلال ما مرت به - من ظلم أو إنصاف - حكمًا شرعيًا!

لأنه قد تتخلف الصورة الشرعية - المأمور بها - لأسباب طارئة، وثقافة عارضة في زمن ما، وما أقلَّ الإنصاف!

=حسنًا، لكن كيف؟

قالت د. حنان: يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠] تكفَّل اللهُ بالإغناء بعد الفراق... فاطمئني واربَعي على نفسك.

تطلقت بنتا رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم رضي الله عنهما من ابني أبي لهب عتبة وعتيبة نكاية بالنبي ﷺ حين صدع بالدعوة بأمر أمِّ جميل ليُحزناه ﷺ ويثقلا كاهله في زمن الحصار في الشِّعب، فأبدلهما الله خيرًا منهما عثمان بن عفان رضي الله عنه رقيةَ أولًا، فلما توفيت تزوج بأم كلثوم، وكان خير بديل رضي الله عن الجميع[1].

وتطلقت إحدى الصحابيات فاطمة بنت قيس رضي الله عنها من أبي عمرو بن حفص فخطبها ثلاثةٌ! منهم: معاوية وأبو الجهم، فاستشارت النبي ﷺ فاختار لها أسامة بن زيد رضي الله عنهم[2].

وكانت المرأة بمجرد طلاقها أو موت زوجها يأتيها الخُطاب دون تحيُّزٍ للبكر، ففي كل صنفٍ من النساء حاجةٌ يجدها الرجل، ومقتضيات تقتضي اختيار ما يناسبه، ولا زال هذا الأمر في كثير من المجتمعات ممَّن لم تُصبهم المدنيَّةُ بأنيابِها.

(١) نساء حول الرسول، محمد برهان، ص:٧٣، أيضا ص: ٧٦.
(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

وسِيَر الصحابيات أقوى شاهد لذلك، فالمجتمع المسلم لا يرفض المُطلَّقة، ولنا في رسولنا ﷺ أسوة حسنة! فقد رسم أسمى المعاني في مقاصد الزواج.

كانت خديجة بنت خويلد أولى زوجاته رضي الله عنهن كبيرةً، وقد تزوجت اثنين قبله ﷺ، وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين، فبقي لها ووفى حتى توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وكانت زوجاته ﷺ بعدها بين مُطلقة وأرملة أو مرتد زوجها عن الدين، فتزوجهن جبرًا لقلوبهن ومراعاةً لظرفهن، ولم يتزوج بكرًا إلا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وهي التي لم تكن تسمع منه إلا الثناء على خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والوفاء لها رضي الله عنهن جميعًا[1].

-باللهِ عليكِ، كيف لم تعتنِ الشريعة بالمُطلقة وأين تحيُّزُها للأبكار؟

ثم إن عاقبة الصبر خير، تعجَّل الجزاء أو تأجَّل!

ندَّت ابتسامةٌ خجلى من أمل، ولمـّا همَّت بالحديث استأذنتْنا د. حنان، بعد أن رنَّ هاتفُها: أوه أعتذر منكم، وصل ابني، وأنا مضطرةٌ للذهاب الآن، وقد تركتُ لكِ د. سلوى يا أمل، ففيها غُنيةٌ وكفاية.

(١) يُنظر: خصائص الإسلام وأباطيل خصومه، بتصرف، عباس العقاد، ص: ١٤١ وما بعدها.

-مع السلامة دكتورة! ما عليك زود، طيِّب أمل: هل تذكرين أحلامك قبل الزواج؟ والتفاصيلِ التي رسمتِها للفارس القادمِ على صهوةِ خيله الأبيض؟

=رفعتْ أمل حاجبَيها باستغراب: أعتقد مررت بهذه المرحلة، لكن ما فهمت مغزى السؤال! عيبٌ مثلًا إني أحلُم بزوجٍ رائع؟

-ابتسمتْ د. سلوى مُجدَّدًا: بالطبع لا، مجرد مروره بالخاطر أمر طبيعي.

=طيِّب، لكني لم أفهمك!

وضعتْ د. سلوى كوب قهوتها، واقتربتْ من أمل: كان جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتىً صغيرًا في عنفوان الشباب، يتمنى ما يتمناه أي شاب بمثل أحلامكن يا بناتي! فتاةً بسنه، أو أصغر قليلًا تهتم له، وتُماثله الأفكار، لكنه فقد أباه الذي يرعى مصالحه وهو صغير - وربما كانت أمَّه متوفاة أيضًا - وقد ترك له أخواته الصغيرات كذلك، فكان بين أمرين: أن يسعى في تحقيق حلمه كأي شاب، أو يلملم شعث بنيات صغيرات يَحتجْن لأم تحتضنهن وتقوم عليهن، فآثرهن على فتاتِه التي يحلم بها، فكان اختياره على غير المألوف من أمثاله من الفتيان، وهذا يدل على رجاحة عقله وحكمته وإيثاره.

فكان موقف النبي ﷺ من جابر موقف الأب الرحيم الذي يهتم له كاهتمامه ببقيه أفراد جيشه صغارًا أو كبارًا، يتتبع أحوالهم بسؤال أو مزاح، وحقيقة القصة: أنّ جملَ جابر تعثر وتأخر عن الركب، ففقده النبي ﷺ في السير فبحث عنه، وعلم حالة جمله، فوكزه بعصاه، فنشط، وسبق القوم ببركة النبي ﷺ ودعوته، ثم اجتمعا في السير مرة أخرى، وجرى بينهما حديث الوالد لولده، فاستأذنه جابر ﷺ أن يسبق القوم للمدينة، فسأله: علام تتعجل يا جابر؟

قال: إني حديث عهدٍ بعُرس... فقال بداهةً: أبِكرًا تزوجت أم ثيبًّا؟ فقال: بل ثيِّبًا - على غير المألوف- فاستشكل حاله واختياره، ولِمَ لم يختر مثل بقية أقرانه فتاة في سنِّه يقضيان أيامهما الأولى ببراءتهما العفوية يتلاعبان ويتضاحكان[1]!

فبيّن جابر للنبي ﷺ سبب اختياره فقال: «إن عبد الله هلك وترك تسع بنات أو سبع وإني كرهت أن آتيهن أو أجيئهن بمثلهن فأحببت أن أجيء بامرأة تقوم عليهن وتصلحهن قال فبارك الله لك».

فالنبي ﷺ خاطبه أولًا خطاب الوالد الشفيق، ونظر إلى فتوته وما تعارف عليه الناس في الاختيار، فلما تبيّن له رجاحة عقل

---

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين (٣٣٩/٦).

جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتفوقه على طموحاتٍ خاصة لمصالح عامة في أسرته: دعا له بالبركة وأكد له صواب رأيه بقوله: «فَذَاكَ إِذَنْ»، فلاشك أن جابرًا بعد ذلك ازداد طمأنينةً وفرحًا باختياره، ويكفيه أنه نال بركة دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له تلحقه وأهله وذريته وبها سعادة الدارين، فعُلِم بهذا أن البكر ليست هي الخيار الأمثل في كل حال!

ومما يزيد الأمر جلاء هو بقية حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه أن اختيارات الزوجة المناسبة تدور في نظر الناس في مقاصد متعددة حيث قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فذاك إذن، إن المرأة تُنكح على دينها ومالها وجمالها، فعليك بذات الدين تربت يداك» أي: فلا عليك لو اخترت ثيبًا أو بكرًا، فأهم خصلة ترعاها هي خصلة الدين «فاظفر بذات الدِّين تربت يمينك»[1].

وعلى فرض أنه نصح له بالبكر، ما المانع من نصح الشاب الأعزب أن يتزوج فتاة عزباء مثله؟

وليس في زواج جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه أي تطرق لذكر المُطلقة أو التحريض ضدها، ولو أنصفنا في الحكم فإن الموقف مثال رائع لتميز المُطلقة في مقام أليق بها من البِكر التي هي في مثل هذا المكان لا تصلح له[2]، بل صار مثله في اختيار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) يُنظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، القرطبي (٢١٥/٤).
(٢) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٨/٥)، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي.

فإنه لما عرض بعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكانت إذ ذاك صغيرة لا تصلح لرعاية شؤون البيت والاهتمام بفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ احتاج امرأةً أخرى فخطب سودة بنت زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكانت خير من قام به وبأهل بيته[1].

-هاه أمل! هل أشرقت الصورة الآن؟

=أشرقت الصورة فقط؟ بل الشمسُ كلُّها! لا مشكلة لدي أن يفرِّقوا بين المُطلَّقة والبِكر، المشكلةُ الكبرى: رفضُ المُطلَّقة! هذا ما لا يصلح، فبعضُ الكسرِ جبر، في مثل حالتي، وأنا أعلم أن انفصالي كان في محله والحمدُ لله، لكني أبقى بشرٌ، تُؤنسني الكلمةُ الطيبة، وتوحشني النظرةُ العاتِبة.

-في هذه أوافقُك، وأعتقد أنه من الحكمة أن نفرِّق بين أحزاننا وأقدارنا المؤلمة التي تمر بنا لحكمة نعلمُها أو نجهلُها، وبين أحكام الشريعة التي شرعها البرُّ اللطيف، وبين تطبيق الناس لها أو تفريطهم فيها، فهذه جهاتٌ ثلاث، نُخطئ كثيرًا حين نخلطُ بينها.

ظللتُ ساهمةَ الطرف، لم يرُعني غيرُ مَجيء مُنى من بعيد تتلاحق أنفاسُها: تدرين لي نصف ساعة أدوِّرك، توبة نجي مع بعض، السيارة وصلت!

ودَّعتُ أهلَ الجلسة الهادئة، وصاحبة القهوة أمل، وهذا الحوارَ

---

(١) نساء حول الرسول، محمد إبراهيم سليم ص: ٥.

الرخيمَ، وكم وددتُ لو يطولُ حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الفجر.

* * *

## مخرج...

لا تُكثر الحسرات على أيامك الفائتة...

هدف الفوز يمكن أن يُسجَّل في آخر ثانية !

# ناقصاتُ عقلٍ ودين

د. سندس بنت عادل العبيد[1]

في أُسرتنا، تتعدّد الأدوار، ما بين والد، ووالدة، وأخ، وأخت، أكبر وأصغر، ولكلٍ مساحته التي لا يملؤها غيره، ويُفقد حين يُبادِله آخر، أو يغيب عنه طوعًا أو كَرهًا.

وهكذا، في كل جهة شخصٌ ما يسد ثغرًا، ويؤدّي دورًا، ولو تشابهْنا لغدتِ الحياةُ باهتةً مُملَّة، ولاقتتلْنا على مهامٍّ، وبقيتْ أخرى معطَّلةً أبد الدهر! لذا من رحمة الله، أن قدَّر لنا الاختلاف كي نعيش بتوازن، وتجدُّد، ثمَّ نحيا في حُبٍّ وتكامل.

بينا استغرقتُ في تأمُّل هذه الحكمة الربانية؛ طرأ على خاطري قولُه ﷺ: «ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أذهبَ للبِّ الرجل الحازم من إحداكن».

فابتسمتُ طويلًا، وشعرتُ بطعمِ الحديث بين جوانحي، فلم تُغادرني الابتسامة، ووددتُ لو ابتسمتْ معي كلَّ نساء الأرض، بدلًا من أن يجِدْن في أنفسهن حرجًا – حاشا المسلمةَ من أن تتحرج من قولٍ خرج من فيِّ نبينا ﷺ – إذ لا أُحصي عدد مَن استعمل هذا الحديث العظيمَ الجليل! في غير محلِّه، آخرُه حين

(١) عضو هيئة تدريس في قسم التفسير والحديث – كلية الشريعة - جامعة الكويت.

أخبرتني إحداهنَّ بأسى، أن حلقةً عُرضتْ، كان فيها أحدُ مَن أُريد أن يبدو بصورةِ درويش، وهو يعظُ ابنه حين اختلف مع أخته، فقال له بفصاحةٍ ساذجة: «دعها يا بُنيّ! ولا تختلف مع ناقصة عقلٍ ودين»!

وهذا مشهدٌ عارضٌ من آلافِ مشاهد الهُزء بالحديث بصورةٍ خفيَّة، لنتجاوز هذا المشهد، ولندلُف للحديث بطعمٍ مختلف، بعيدًا عن تشويه مَن حُرموا فهمه فهمًا صحيحًا، بقصدٍ أو بدون قصد، وسأحاول أن أُعينَ مَن يريد الفَهم الصحيح ببعضِ تلميحاتٍ عجْلى.

لا أُبالغ إن قلتُ إن هذا الحديثَ وجهٌ من وجوه الإعجاز النبوي! وهو مفخرة لكل مؤمنة صادقةٍ ترفعُ رأسَها بين آكامِ الجموع، عِزَّةً بدينها، لا تستثني منه شيئًا، حياءً أو حرجًا!

يقول الحديثُ بتمامه: عن أبي سعيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرج رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: «يا معشر النساء! تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار». فقلن: وبمَ يا رسول الله؟ قال: «تكثرن اللعنَ، وتكفرن العشير، ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذهبَ للُبِّ الرجلِ الحازمِ من إحداكن». قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟» قلن: بلى. قال:

«فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟» قلن: بلى. قال: «فذلك من نقصان دينها»[1].

وقد جاء هذا الحديث في سياقِ مدح وتعجُّبٍ من قوة تأثير المرأة، إذ أخبر به النبي ﷺ في يوم عيد إسعادًا للنِّساء من جهة - من عصره ﷺ حتى تقوم الساعة - ولفتًا لانتباههن من جهةٍ أخرى، وفي الحديثِ دلالةٌ واضحةٌ على اهتمامه ﷺ بالنساء، حيثُ غادر جهةَ الرجال، وتحدَّث مع النساء خاصةً حديثًا لم يُخبِره الرِّجال.

ولربَّما ظنَّت القارئةُ الكريمة أن في الحديث انتقاصًا منها، إذ جاء فيه أنها «ناقصةُ عقلٍ ودين»، ومنشأ هذا الظنِّ الحزين - والله أعلم - كثرةُ استعمال هذه اللفظة في مواضِع النقص! في حوار، أو مُناظرة، أو عِراكٍ فكري!

ولربَّما نازعت المرأة في أصل معنى "نقص العقل" إذ الواقع يشهد بوجود كثير من النساء أفطنُ من الرجال.

حسنًا! هذا أمرٌ مُشاهَد، والمؤمنةُ في قرارةِ نفسها، مهما حاول المُرجفون ملأَ عقلِها بمعنىً بُطلانه مُغنٍ عن إبطاله، إلا أن يقينًا راسخًا كالجبال، يستولي على خاطرِها، مفادُه: أنه مُحالٌ أن يذم

(١) أخرجه البخاري (٦٨) ومسلم (٨٠).

النبي ﷺ المرأةَ ويظلمَها، لأن أفعاله لا يمكن أن تُفسَّرَ بذلك، والأفعال أصدق من الأقوال، فما المَخرج من هذا التناقض المضطرمِ بين أضلاعها؟

الحقيقة أنه ما مِن تناقضٍ البتة؛ كيف؟ إذ لم ينفِ الحديثُ - بل لم يقصد - فطنةَ المرأة، ولا ذكاءَها، لسبب واضح وسهل، وهو أن: العقلَ هُنا لا يُراد به الذكاء أو الفطنة!

وأنا أكتبُ هذه العبارة الأخيرة: "العقلَ هُنا لا يُراد به الذكاء أو الفطنة!" شعرتُ بصوتٍ في خاطري: ما هذه الألغاز؟ لا أبدًا، ولو افترضنا أنها ألغازٌ غيرُ مفهومة؛ فإن أفضل ما يُفسر به النص كلام القائل نفسه فهو أدرى بمراده، يقول ﷺ: «ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذهبَ للُبِّ الرجلِ الحازمِ من إحداكن»، فوصَفَها بنقص العقل، ووصفَ الرجلَ العاقلَ بالحازم -إذًا الحازم هو العاقل في هذا النص- أعتقد أننا متفقاتٌ حتى هذه اللحظة.

ثم إنه ﷺ قد ذكر نقصان عقل المرأة مقابل كمال عقل الرجل، نُقصان حزمِها مقابل حزمِه، وليس المرادُ بالعقل هنا الذي هو ضدُّ الجنون .

ماذا يعني هذا؟ يعني أن نقص العقلِ المُراد في الحديث نُقصان الحزم، لا نقصان الذكاء! وهذا مُطمئِنٌ لمَن وجدتْ في نفسها حزازةَ كون الواقع يشهد بأنه ثمة نساءٌ أفطنُ وأذكى من الرجل؛

لأن العقل في الحديث لم يُقصد به الذكاء ولا الفطنة ولا الدهاء.

الأمرُ اللافتُ الذي لم أستطِع تجاوُزه! أنها رغم نقص حزمها، تغلبُ الرجل الحازم، بنصِّ الحديث! ألا ما أعجبَ تكويننا، الغلبةُ للأدهى وليست للأقوى، ونحنُ معاشرَ النساء نفهمُ هذا جيدًا.

وكونُ العقلِ يأتي بمعنى الحزم؛ هذا أمرٌ مُتعارفٌ عليه لُغةً، فالعقلُ والحزمُ يأتيان بمعنى واحد وهو الاحتراز في الأمور والجمع والضبط للرأي.

وفسَّر النبيُّ ﷺ نقصانَ عقل المرأةِ أيضًا في هذا الحديث بكون شهادتِها نصف شهادة الرجل بنص الآية: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢] لكونِ المرأةُ ربما جهِلت أو نسيت عند إرادتِها الشهادة؛ كأن يتعلق الأمرُ بالدماء مثلًا وهي لم تحتمل المشهدَ الذي رأته؛ إذ امتلأتْ حزنًا وأسى على المقتول أو المُصاب إصابةً شديدة، وقد رأتْه مخضَّبًا بدمائه، فتذكرتْ أمَّه أو ابنتَه وكيف فقدُها له، ومن الحزنِ أو الخوفِ الشديد ما يؤثر على تذكُّرِ المرء، فلا تنضبطُ شهادتُه.

حسنًا... هل كلُّ النساءِ هكذا؟ لا، لكنها الحالةُ السائدة، طيِّب، وهل كلُّ الرجال أقوياء أشدَّاء على منظر الدماء؟ أيضًا: لا، لكن

السائدَ أنهم شديدو التحمُّل، والأحكامُ تُبنى على الغالب، لا على الاستثناءات، ثم إن الإصابات والقتل والدِّماء، يكثر تعرُّض الرجال لها، لا النساء، فالأمرُ - أصالةً - له مساسٌ أكثرَ بالرِّجال، هذا أمر.

أمرٌ آخر -وهو- ما الذي أَفقِدُه حين لا تؤخذ شهادتي في الدِّماء؟

**أولًا**: يجب أن يُطرَح السؤال بشكل صحيح، مَن قال أنه لا تُوخذ شهادتُك؟ بل تؤخذ أيتُها المرأة، لكن تُشفَع بأختٍ لك، فقط، هذا كلُّ شيء؟

-لا**!**

-ما لا يقوله أولئك الذين يُحبُّون إحزان النساء وإغاظتهن: أنَّ من الشهادات ما (لا) تُقبَل معه شهادةُ الرجل**!**

أتذكَّر أني ذكرتُ ذلك في إحدى المرات، فقالتْ إحداهن بلا وعي: "قولي قسم بالله يا أستاذة!" فضجَّت القاعةُ بالضحك.

=نعم، الشهادةُ بالرضاعة، أو بأمورٍ أخرى لا يمكن للرجال أن يطَّلعوا عليها، لعدم دخولها مجال اهتمامهم، لا يمكن أن تُقبل شهادتهم فيها، (لا تُقبَل) وليس أن نشترط وجودَ رجلٍ آخر معه فحسب **!**

أرأيتُنَّ كيف يقلب العلم الطاولة على مَن لا يُجيد غير الاعتراض بجهلٍ لا انتهاءَ له؟

-ولماذا لا يُكتفى بواحدةٍ في شهاداتِ الدِّماء؟

=لأن المرأةَ مملوءة بالعاطفة - ولولاها ما احتملتْ أطفالها - فربَّما زادت أو نقصت في شهادتها لفرطِ عاطفتِها التي ركَّبها اللهُ فيها، لتبُثَّها في العالَم، على نحوٍ فريد.

ولنختبر (كمالَ) عاطفة المرأة، و(نقصَ) عاطفةِ الرجل، ضعي طفلًا يبكي عندَه بمفردِه مدَّةَ ربع ساعة، وانظري أيحتمل ذلك أم لا، أعتقدُ أن النتيجة معروفة سَلَفًا، فإمّا أن تُنجِدَه أمُّ هذا الطفل بصورةٍ عاجلة، وإلا فالطفلُ مهدَّدٌ بالخطر!

هذا في اشتباه معنى (نقصِ العقل) وقد مضى أن المراد نقصَ الحزمِ، لا نقص الذكاء أو الإدراك، مع تفسير سبب احتياج المرأةِ لشهادة أختِها معها، وأن ثمة مواضع لا يُسمَحُ للرجل بدخولها أصلًا.

أمرٌ ثانٍ استُشكِل معه فَهم الحديث، في كون النساء أكثر أهل النار، وأن في هذا ظلمًا لهنّ!

أودع الله في الرجال شهوة للنساء وجعلها ذات حدّين، إما أن يكون بها عمار الأرض، وإما أن يكون بها خراب الأرض، وعلى

الرجال التقوى والصبر، وكذلك أودع في النساء العاطفة، وجعلها ذات جناحين إما أن تضبطها المرأة وتكون بها أساس المجتمع، وإما أن تغلبها العاطفة فتؤثر على أقوالها وأفعالها وسلوكياتها سلبًا فتكون من أهل النار.

لذلك فإن أول الحديث له ارتباط بعاطفة المرأة، فالمرأة إذا لم تضبط عاطفتها، فأي مؤثر تتعرض له يشتد بها البأس وتكثر اللعن، وتكفر العشير، فحرص النبي ﷺ على تدريبها على العطاء وضبط النفس فقال: "تصدقن"، والعطاء يدرب الإنسان على إدارة نفسه وضبط سلوكياتها، فكانت نصيحة النبي في محلها ومن حكمته ﷺ.

فإن أفضل ما تتدرب به المرأة على ضبط انفعالها وتقييد عاطفتها هو العطاء، فإن المال عزيز على النفس، وإذا اعتادت المرأة على الصدقة اعتادت على ضبط النفس، وهذا الحديث يُبين قوة تأثير عاطفة المرأة سلبًا وايجابًا، وأن للمرأة تأثيرٌ قويٌ في المجتمع، وأن عاطفتها تؤثر على أفعالها وأقوالها وسلوكياتها، لذلك اهتم النبي ﷺ بأمرها ووجهها لما فيه صلاح لها وللمجتمع.

فلا أحد أقدر على سلب عقول الرجال من المرأة لقوة تأثيرها العاطفي وسحر جمالها ودلالها وإغرائها.

-قد يُظنُّ عند أول وهلة أن في الحديث ظلمًا للنساء، لكنكِ حين تدققين بعضَ الشيء فإنك ستُلاحظين أن النبيَّ ﷺ لم يحكم على النساء بأنهن أكثر أهل النار! وإنما أخبر بما أطلعه الله عليه من الغيب بأن النساء أكثر أهل النار، وفرقٌ بين الإخبار والحُكم، ولا يدخل الإخبارُ ضمن الظلم، وإنما هذا الأمر له ارتباط بإيماننا بقضية القضاء والقدر، وأن عِلم الله بما سيقع هو صفة انكشاف ينكشف بها ما سيختاره العبد لا صفة تأثير بحيث تؤثر على اختيار العبد، وهذا كله تحت مشيئة الله تعالى وكمال علمه سبحانه، يعني أن مَن تدخل النار فإنها لا تدخلها لكونِها امرأة، إذ الله تعالى مُنزَّهٌ عن الظلم، وإنما تدخلها المرأة، ويدخلها الرجل لما اقترفتْ يداه، ولا دخل للجنسِ في ذلك.

والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فالله تعالى لا يظلم عباده، وما خلقَهُم سبحانه ليُعذِّبهم! إذًا كيف نفهمُ الحديث؟

**أولاً**: هذا من الغيبِ الذي كشفه الله لنبيه ﷺ، وأن العلم صفة انكشاف لا تأثير لها على إرادتنا كما تقدم، وأن الكثرة إنما كانت بما اكتسبنه من معاصٍ.

**ثانيًا**: نسمع دائمًا أن النساء أكثر من الرجال منذ القدم، وإحصائيات العالم تؤكد ذلك.

فإذا قررنا هذه القاعدة الخَلْقية، وعلمنا أن جنس النساء أكثر من جنس الرجال، فإن هذا يكون منطقيًا بوصفهنَّ أكثر أهل النار لأنهن أكثر عددًا، والمفاجأة السعيدة التي لا يعرفُها الكثير: أننا أكثر أهل الجنة أيضًا كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «أولُ زمرةٍ تلجُ الجنةَ صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحدٍ منهم زوجتان، يُرى مُخ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يُسبحون الله بكرةً وعشيًا»(١). فالنساء على هذا أكثر أهل الجنة أيضًا(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض الله الله، وحتى تمرُ المرأةُ بقطعة النعل، فتقول: قد كان لهذه رجلٌ مرة، وحتى يكون الرجلُ قيِّم خمسينَ امرأة، وحتى تُمطر السماءُ ولا تُنبتُ الأرض»(٣).

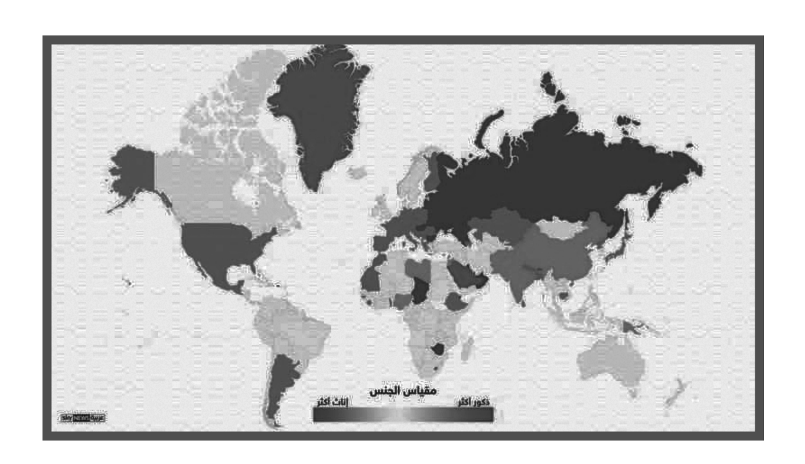
وهذا الحديث يقرر أيضًا أن الساعة لا تقوم إلا والنساء أضعاف الرجال.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٥) ومسلم (٢٨٣٤).
(٢) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، الكوراني (٦/ ١٨٨). وإن لم يتفق الشراح على أن المقصود بهذا الحديث نساء الدنيا، فبعضهم قال: هم الحور العين، لكن النساء هن النساء.
(٣) أخرجه مسلم (١٤٨).

إذاً جنس النساء أكثر في النار وأكثر في الجنة، وذلك لأنهن أكثر عددًا من الرجال عمومًا في أصل الخلقة.

في يوم الخميس ١٢ يناير ٢٠١٧م نشرت جريدة سكاي نيوز عربية – أبو ظبي الخريطة التالية، والتي تتناول بالتفصيل الفروق بين معدل الجنسين في دول العالم بحسب الإحصائيات والمعطيات الرسمية(١).




إذ يبدو واضحًا زيادة اللون الأزرق (أو الفاتح في الصورة الأبيض والأسود) والذي يرمز للنساء، في مقابل اللون الأحمر (أو الأغمق) للرجال. فإذا تقرر ذلك انتهت هذه الإشكالية.

---

(١) عنوان المقال: (إنفوغرافيك.. خريطة "الذكور والإناث" في العالم). وللمزيد من المعلومات والخرائط يمكن مطالعة مقال الويكيبيديا التالي:
https://en.wikipedia.org/wiki/Human_sex_ratio

وقد جاء هذا الحديث من باب الوعظ والتذكير، مؤكِّدًا على حُسن الخلق، وله ارتباط مباشر بالجزء الثاني من الحديث «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير».

وليتَّضح الأمر أكثر، أمثِّلُ بهذا الحديث: قال النبي ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة. رجلٌ قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاض لا يعلم فأهلكَ حقوقَ الناس فهو في النار، وقاضٍ قضى بالحق فذلك في الجنّة»[1].

فالحديثُ يُبيِّن أن أصناف القضاة ثلاثة؛ صنفان في النار، وصنف في الجنة، فهل يعني هذا أن مُهمَّة القضاء مذمومة أو أن الحديث ينتقصُ منها؟ لا يقول بذلك عاقل! وإنما غاية ما في الأمر أن النبي ﷺ يؤكد على عظم هذه المسؤولية، وأن الكثير يَزلُّ فيها لذا يجب على المرء الحذر.

وحديثنا كذلك ليس فيه ذمًا للنساء، وإنما أكَّد فيه النبي ﷺ على ضرورة حُسن الخلق، وضبط الانفعال، وأن كثيرًا من الناس يَزلّ، فليتنبَّه الفطِن.

ولا اختصاص للنساء بهذين الفعلين المُسيئين (كثرة اللعن، وكفران العشير) عن الرجال، فإنَّ من الرجال ما لا يُحتمل مجلسه وصُحبته لكونه لعَّانًا، لا يحفظُ للعشرةِ معروفَها! وإنما كان

(١) أخرجه: أبو داود (٣٥٧٣).

الخطاب خاصًا لمجلس النساء، فناسب أن يخصَّهن النبي ﷺ بالتذكير في هذا المقام، وهل إذا قلتُ لابنتي: احذري من الكذب، وصُحبة السوء، معناه أنِّي لا أحذِّر ابني ممَّا حذرتُها؟

لا! بل لكونِ الحديثِ كان موجَّهًا لابنتي، ولم يكن ابني وقتَها حاضرًا.

ثمة أمرٌ يكثرُ استشكالُه، وهو أن في الحديث انتقاصًا للمرأة: «ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذهبَ للُبِّ الرجلِ الحازمِ من إحداكن».

وبصراحةٍ بالغة، فإنَّ الذي يُحدِّد ذلك، هو فَهم لُغة الخطاب عند العرب، وأسلوبهم، كيف يتعجّبون؟ كيف يمدحون؟ وكيف ينتقصون؟ والمعوَّل على ذلك لغتُهم وقت سلامة سليقتهم، لا في وقتنا هذا، لذا قد يعسر علينا كيف يكون المقصود التعجُّب بهذا الأسلوب؟

ومَن يقرأ الحديث بعينٍ واعية، وفَهم عميق، وعلمٍ بلغة العرب، لا يجدُ مشقةً في كون الحديث قد جاء بأسلوب تعجبٍ يُفيد المدح، إذ كيف تغلبُ المرأةُ - التي ينقصُها الحزمُ، وتأتيها أيامٌ لا تصلي ولا تصوم فيها[1] - الرجلَ الذي يتشدَّق بكمالات

(١) ونقصُ دينِها نقصُ كمٍ لا نوع، إذ أنه نقصان عدد العبادات عندها، ومع هذا لا تؤثم ولا تلام، فهي تصلّي لأن الله أمرها بذلك، وتترك الصلاة لأن الله أمرَها بذلك، والمعوَّل عند الله على العمل الصالح، لا الجنس الذي ليس لأحدِنا يدٌ فيه.

الحزمِ والقوة؟ فعادَ وصفُ نقصِها كمالًا، إذ المعنى: «لا أحد أقدر على سلب عقل الرجل، وفتنته، وإغوائه من المرأة، لقوة تأثيرها العاطفي، وسحر جمالها ودلالها وإغرائها، قال الشاعر:

إنَّ العُيُوْنَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِيْنَ قَتْلَانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبَّ حَتَى لَا حَرَاكَ بِهِ * وَهُنَّ أضعَفُ خَلْقِ اللهِ إنْسَانَا»[١]

* * *

مخرج...

عدم المطالبة بالدليل:

تجعلُ عقلَ المرءِ سلةَ مُهملاتٍ لآراءِ الآخرين!

---

(١) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم (١/ ٣٢٩).

# إنما الشؤمُ في ثلاثة

د. مها بنت منور المطيري[١]

بينما كان الضباب يهبط بكثافة على مدرج الطائرات في مطار تنريف في جزيرة تنريف الإسبانية، كانت طائرة الخطوط الجوية الهولندية تستعد للإقلاع حينما خاطب الطيارُ المراقبَ في برج المراقبة وأخبره أنهم مستعدون للإقلاع متى ما خلا مدرج الطائرات، في هذه الأثناء استقبل الطيار خطابا صوتيا من برج المراقبة يحددون فيه مسار الطائرة بعد الإقلاع، إلا أن الطيار أساء فهم المراقب وظنه يعلن لهم خلو المدرج من الطائرات والسماح لهم بالإقلاع، خصوصا عندما سمع كلمة إقلاع (takeoff) ، فخاطب الطيار برج المراقبة بأنه في صدد الإقلاع الآن (we are now at takeoff)، ولكون هذه الجملة احتملت معنيين: معنى الإقلاع الفعلي، ومعنى الوجود في مكان الإقلاع، أجابهم المراقب بكلمة (نعم) التي كان يقصد منها علمه بمكانهم، بينما فَهِمَ منها الطيارُ السماحَ لهم بالإقلاع لخلو المدرج من الطائرات، وفي الوقت الذي كانت فيه طائرة بان إم الأمريكية في نفس المدرج تستعد للوقوف؛ أقلعت طائرة الخطوط الجوية الهولندية، وبسبب

---

(١) عضو هيئة تدريس في قسم التفسير والحديث – كلية الشريعة - جامعة الكويت.

الضباب الكثيف لم يرَ الطيار الهولندي الطائرة الأمريكية، فاصطدمت الطائرتان في أشهر حادثة تصادم في تاريخ الطيران المدني[1]، راح ضحيتها كل الركاب في الطائرة الهولندية البالغ عددهم ٢٤٨، وأغلب ركاب الطائرة الأمريكية البالغ عددهم ٣٣٥ من أصل ٣٩٦، بسبب سوء تفسير الطيار لعبارة المراقب في برج المراقبة، وسوء فهم المراقب لعبارة الطيار!

تخيلي! كيف يمكن لسوء الفهم أن يكون مدمِّرا وعواقبه كارثية أحيانا إن لم يُحَل سوء الفهم هذا قبل فوات الأوان!

غالبنا تعرّض ولا شك لحادثة سوء فهم عباراته أو موقفه على الأقل مرة واحدة في حياته؛ فماذا كان موقفك أيتها القارئة حينها؟

طبيعيٌّ أنك شرعت في بيان قصدك وغرضك من كلامك حتى تزيلي الإشكال الذي حصل بسبب سوء الفهم هذا! فإذا كنا نتعرض لسوء التفسير وسوء الفهم لعباراتنا بشكل مستمر في حياتنا اليومية، أفلا يمكن أن يساء فهم قول نبينا ﷺ في حديثه، لا سيما إن اقتُطع من سياقه، ولم يمنح القارئ نفسه فرصة الاطلاع على مقصد النبي ﷺ من خلال أحاديثه الأخرى؟

ومن الأحاديث التي أُسيء فهمها وانتزع من سياقاته حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنما الشؤمُ فِي

(١) https://en.wikipedia.org/wiki/Tenerife_airport_disaster

ثلاثةٍ: فِي الفَرَسِ، والمرأةِ، والدَّارِ»[1]، حينما أشيع أن المعنى المراد منه هو أن المرأة شؤم على الرجل في كل حال!

حسنًا... لنفترض جدلًا أن الحديث قُصد منه الشؤم على المعنى المتبادر، فهل يعني هذا أن لا تُتزوَّج النساء، وأن لا تُركب الدواب، وأن لا تُسكن الديار والبيوت لأنها شؤم؟! هل رأى أحدٌ عاقلًا يقول بهذا، فضلًا عن أن يقول به رسول الله ﷺ وصفوته من خلقه؟

-هذا الفهم لا يُتصوَّر أصلاً!

=إذاً ما الفهم الصحيح؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال تأملي معي؛ لو أن أحدنا أخذ قطعة واحدة من لعبة تركيب الصور[2]، وأخذ يحملق فيها ويجتهد في أن يعرف الصورة الكاملة التي تنتمي إليها هذه القطعة، فلن يهتدي إليها ولو بلغ ما بلغ من حدة البصر ورجاحة العقل إلا بعد رؤيته للصورة كاملة، أو يقوم بتجميع قطع الصورة كلها، ثم تركيبها مُرتبة شيئًا فشيئًا حتى تتضح له بشكل كامل واضح.

هذا المثال البسيط ذاته ينطبق على المسائل العلمية الفكرية،

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٣) ومسلم (٢٢٢٥).

(٢) أو ما يُعرف بالبازل Buzzle.

فإذا اقتصر الإنسان على جزءٍ واحدٍ من الحقيقة دون تتبع بقية أجزائها، معتمدًا على إعمال عقله فقط في هذا الجزء الوحيد فإنه لن يهتدي إلى صورة الحقيقة الكاملة، وسيبني على هذا الجزء الواحد نتائج خطأ وغير موضوعية لقصور تصوره للصورة الكاملة! وهذا الأمر هو الذي دفع ببعضهم إلى تصور أن السُنة النبوية تنتقص من المرأة في هذا الحديث، لكونه اقتصر على هذه الرواية بمعزل عن المنظومة المعرفية الشرعية الكاملة التي يدور في فلكها هذا الحديث.

طيِّب! أين بقية قطع الصورة المعرفية الكاملة لهذا الحديث؟ حتى نستطيع الوصول بانسيابية للمعنى المراد؟

◘ **القطعة الأولى**: لماذا خُصت المرأة في هذا الحديث بالذِّكر دون الرجل؟

=جلالة الأثر دليل على حجم المؤثِّر !

-كيف؟

=لما كانت المرأة هي المسؤولة عن تربية الأبناء، وهي التي تشرف على أمور المنزل، وهي التي تحتك بأقارب الرجل، كان نفوذها وتأثيرها في البيت والأسرة أكبر من نفوذ وتأثير الرجل، لكون الرجل عادةً ما يكون خارج المنزل في مهنةٍ يُؤمِّنَ بها مصاريف أسرته المادية، ولهذا خُصت المرأة في هذا الحديث

بالذكر دون الرجل، فإن كانت ذات خُلقٍ سيئ فنستطيع القول أنها ستكون وسيلة دمار شامل على الأسرة! والحديث بمفهوم المُخالفة يُبين أنها ستكون وسيلة إصلاح شامل للأسرة -أكثر من الرجل- إن كانت صالحة! ولهذا نجد النبي ﷺ يقول في أحاديث أخرى: «الدنيا متاع، وخيرُ متاع الدنيا المرأة الصالحة»[1]، وقد دلت بعض الأحاديث على أن هذا الشؤم -الذي سنأتي على بيان معناه بعد قليل- لا يختص بالمرأة وحدها بل يوجد في بعض الرجال أيضًا، كما جاء في حديث الصحابية فاطمة بنت قيس إذ خطبها ثلاثة: أبو جهم ومعاوية بن أبي سفيان وأسامة بن زيد، فجاءت للنبي ﷺ تخبره، فقال لها: «أما أبو جهم، فلا يضعُ عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوكٌ لا مالَ له، انكحي أسامة بن زيد» قالت فاطمة: فكرهته، ثم قال النبي ﷺ: «انكحي أسامة»، قالت: «فنكحته، فجعل الله فيه خيرًا، واغتبطتُ به»[2].

وما جاء في حديث أم زرع: «زوجي العَشَنَّق، إن أنطق أُطلَّق، وإن أسكت أُعلَّق»[3]، وهذان دليلان على أن ما خُصت المرأة به في هذا الحديث يكون أيضًا في الرجل.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨). والعَشَنّق سيئ الخلق، وفي الحديث قصة لنسوة يذكرن من أخلاق أزواجهن واختلاف تعاملهم مع أزواجهم من الحسن والسوء ما يكون أيضًا في النساء.

◘ **القطعة الثانية**: حُكم الحديث ورواياته وشواهده الأخرى:

الحديث اتفق على صحته البخاري ومسلم، والمعلوم في علم الحديث أن ما اتفقا عليه يكون في أعلى مراتب الصحة فلا يمكن لأحد أن يطعن فيه من هذه الزاوية، أما روايات الحديث الأخرى فهي عامل بالغ الأهمية، فقد يَرِد في روايات الحديث الأخرى تفصيلاً مهمًا لم يَرِد في الرواية محل الدراسة، وهذا يختصر الكثير من الجهد والوقت في محاولة حل الإشكال.

وهذا الحديث قد ورد له أكثر من رواية بلفظ مختلف، كما ورد معنى الحديث بروايات أخرى، وهذه بعضها:

روايات حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقد وردت بصيغتين:

١. صيغة الجزم: عن ابن عمر، رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث: في المرأة، والدار، والدابة»**[1].

٢. صيغة التعليق؛ إذ علق النبي صلى الله عليه وسلم وجود الشؤم - إن وُجِد- على هذه الثلاث، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: ذكروا الشؤم عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«إن كان الشؤم في شيء ففي الدار، والمرأة،**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٣) ومسلم (٢٢٢٥).

والفرس»[١]. وجاء عند مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إن يكن من الشؤم شيءٌ حق، ففي الفرس، والمرأة، والدار» وحدثني هارون بن عبد الله، حدثنا روح بن عبادة، حدثنا شعبة، بهذا الإسناد مثله، ولم يقل: حق[٢].

وقد روى شواهد الحديث الأخرى عن غير ابن عمر من الصحابة: جابر بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغيرهم.

◻ **القطعة الثالثة**: الأصول الشرعية التي ينبغي أن يُفهم الحديث في ضوئها:

### ١. موقف الشرع من التشاؤم.

بُعِثَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العرب، وقد كان التطير والتشاؤم والتفاؤل معتقدات مترسخة في قلوبهم، وربما ذهبوا إلى عش طير فأخافوه فإن فزع وطار يمينـًا تفاءلوا، وإن طار شمالًا تطيَّروا وتشاءموا، ولما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحال هذه، نهى عن هذه المعتقدات، ونفى عنها النفع والضر بذاتها، فعن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أمورًا كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهان، قال: «فلا تأتوا الكهان» قال قلت: كنا نتطير قال: «ذاك شيءٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٩٤) ومسلم (٢٢٢٥).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢٢٥).

يجده أحدكم في نفسه، فلا يصدنكم»[1]، كما أثبت منها ما كان معناه حسنٌ بعدما خلصه من اعتقاد النفع والضر بذاته من دون الله، ولذلك كان يُعجبه الفألَ رغم كونه من جنس التطير، إذ جاء عن أبي هريرة ﵁ أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا طيرة، وخيرها الفأل» قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»[2]، وقوله: «خيرها» يؤكد أن الفأل من جنس التطير، ولكنه لا ينفع بذاته، وإنما أمره مجرد استبشار بالكلمة، كأن يبحث عن ضالته فيسمع أحدهم ينادي يا واجد مثلاً[3]. ثم إنه أكد ﷺ أن اعتقاد النفع والضر بهذه المخلوقات شركٌ مَحض، إذ روى عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، ثلاثاً»[4]. فإذا علمنا موقف الشرع من التطير والتشاؤم اتضح لنا أن الشؤم المذكور في رواية ابن عمر ليس هو المعنى المتبادر إلى ذهن قارئه باديَ الرأي، ويؤكد هذا مجيء رواية أخرى جمع فيها النبي ﷺ بين ذكر التطير والتشاؤم في نفس الرواية فنفى هذا وأثبت ذاك، إذ جاء عن ابن عمر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة، والشؤم في ثلاث: في المرأة، والدار، والدابة»[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٥٤).
(٣) انظر شرح سنن ابن ماجه، السيوطي وغيره، ص ٢٥٢.
(٤) أخرجه أبوداود (٣٩١٠). وصححه الألباني في سنن أبي داود بتحقيقه رحمه الله ص ٥٨٧.
(٥) سبق تخريجه.

والـذي يتبـين -والله أعلـم- مـن مجمـوع الأحاديـث وأقـوال العلماء أن المقصود بالشؤم في حديث ابن عمر هو الضـرر المـادي الحاصل من هذه الأشياء، والواقع على من خالطها إن كانـت ذات ضرر، وتخصيصها بالـذكر لكثرة ملابستها، ولأجـل الإشـارة إلـى إباحة تركها؛ لأن الشارع لمَّا نهى عـن التطير لـم يـأذن للمُتطيِّر أن يـترك العمـل؛ لظنـه بتـأثير المُتطيَّـر بـه في عملـه، كمـا مـر قولـه في الحديث «فلا يصدّنّكم» إذ ينتفي الضرر المادي في هـذه الصـورة، ومـا علاقـة الطيـور بسـفره وتجارتـه؟! أمـا في حـديث «الشـؤم في ثلاث..» فالضرر المادي واقعٌ فعلاً، وقد فسر العلماء شؤم المـرأة بسوء خلقها، أو كونها لا تلـد، وشـؤم الـدار بضـيقها، وشـؤم الدابـة بكونها حرونًا لا يُنتفـع بهـا ولا يُغـزى عليهـا في سـبيل الله[1]، وهـذه الأمور الثلاث تدور عليهـا معيشـة الإنسـان، فـالمرأة مُستقر ذريتـه وأسرته، فإن فسدت فسدت ذريته وأسرته، والدابـة وسـيلة انتقالـه، فإن فسدت فسد معاشه، والدار مسكنه الـذي يـأوي إليـه، فـإن كـان بعيـدًا أو ضـيقًا أو متهالكًـا ضـاقت عليـه معيشـته وتعسـرت أمـوره، وهذا الضرر المادي مُباح شرعًا تجنبه، بل قد يجـب علـى المسـلم أحيانا تجنبه حفظًا لنفسه وماله وعِرضه.

والمُشاهد في أوساط النسـاء أن المـرأة قـد تكـون شـؤمًا بالفعـل علـى الأسـرة، فكـم مـن زوجـة تسـعى بالقطيعـة بـين زوجهـا وأمـه

(١) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر (٦ / ٦٢).

وأخواته، فإذا دخل عليها ظلت تَذكر له من مساوئهم حتى يمتلئ قلبه عليهم بالضغينة، وربما ظلت تملأ قلوب أبنائها بذلك حتى يتسلل إليهم بغض أعمامهم أو أخوالهم أو إخوانهم، ويمكنك أن تعكس ذلك ويكون صحيحًا، فربما تسببت المرأة في خراب بيت ابنها بكثرة ذكر مساوئ زوجته، هذا غير الشؤم المالي إن كانت المرأة مُتطلِبة جدًا للكماليات في السفر واللباس والأثاث؛ حتى ترهق زوجها ماليًا، فلا يستطيع حتى القيام بأعبائه المالية لتراكم الديون عليه بسبب هذه الزوجة المُتطلبة، أفلا تكون المرأة التي هذه حالها شؤمًا؟! بلى، والإنصاف عزيز.

ولعل هذا المعنى هو الذي دفع بعض العلماء للقول باستثناء هذه الأمور الثلاثة من الشؤم المنهي عنه، لا اعتقادًا بضرها بذاتها ولكن لوقوع الضرر المادي منها حقيقةً بإذن الله وقَدَرِه، ولنضرب مثالاً واقعيا يقرب هذا المعنى؛ لو أن رجلاً أراد أن يبتاع سيارةً ما، ثم تبين بعد الفحص وجود خلل في محرك هذه السيارة قد يتسبب بحوادث خطيرة وأنها غير صالحة للاستخدام، فالموقف السليم أن يصرف النظر عن شرائها لوجود هذا الخلل بها، لا اعتقادًا بضرها من دون الله، ولكن قد جعل الله أسبابًا لقَدَرِه سبحانه، ووجود هذا الخلل في محرك السيارة سببٌ لوقوع الضرر الذي قد يقدره الله تعالى، ولذلك أبيح له تجنب شرائها عملاً بالأسباب، وهذا الأمر ذاته ينطبق على الأمور الثلاثة المذكورة في الحديث

(المرأة والدار والفرس).

ويؤكد ذلك المعنى أيضًا وجود أحاديث أخرى تذكر أن هذه الأمور قد تكون من متع الحياة وسعادة الإنسان، كحديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ أنه قال: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء، وأربع من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء»[1]، فكيف يذكر النبي ﷺ أنها شؤم على المعنى المُحترَز عنه، ثم يذكر أنه قد تكون من متع الحياة بل ويستوصي بها خيرا، إذ يقتضي من وصف شيء بالشؤم – على المعنى المحترز عنه– التباس هذا الشؤم به أبدًا، وقد ثبت عنه ﷺ قوله: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»[2]، وقال: «استوصوا بالنساء خيرًا»[3]، وقال: «خيركم: خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[4]، وقال: «مَن عال جاريتين حتى تبلغا: جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه»[5]، وذكر في أحاديث أخرى أنهن

(١) أخرجه ابن حبان (٤٠٣٢)، وأحمد (١٦٨/١) وغيرهم وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٢) وشعيب الأرناؤوط في تحقيقه لصحيح ابن حبان (٣٤١/٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) وإسناده صحيح.

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٣١).

ستر لعائلهن من النار[١]، فكيف يكون شؤمًا مَن كان هذا حاله؟!

وبهذا المعنى يمكن أن نجمع بين روايتي الجزم والتعليق عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فرواية الجزم تؤكد وقوع الضرر في هذه الأمور الثلاثة إن كانت ذات طبع وطابع سيئ، ورواية التعليق تفيد بأن الضرر إن كان واقعًا فأكثر ما يكون في السيئ من هذه الأمور، فخُصت بالذكر لكثرة ضررها وإباحة تركها إن كانت كذلك.

## ٢. هل يمكن أن يُعارض الشارع نفسه؟

التعارض الحقيقي لا يمكن أن يقع في الشرع، لا في آيات القرآن ولا في أحاديث السنة، ولا بينهما، لأن كلا القرآن والسنة وحيٌ من الله تعالى العليم الحكيم، والقول بوجود التعارض الحقيقي هو قول بنسبة النقص إلى علم الله تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، ولكن التعارض الوهمي هو الذي يمكن أن يقع، وقد يحدث بسبب اختلاف لغتنا الدارجة عن اللغة العربية الفصحى المُستعملة في الأحاديث، أو لضيق فهمنا وعقولنا عن إدراك بعض المعاني التي تزخر بها آيات الله تعالى وأحاديث رسوله، فمنشأ هذا التعارض هو استعمالنا اللغوي وعقولنا المحدودة.

◻ **القطعة الرابعة وهي أهمها**: فهم السلف لهذا الحديث:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٩).

يُعد فهم السلف من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم نقطة فارقة وأمر في غاية الأهمية، لأنهم كانوا شاهد عيان لأحداث السيرة النبوية فرأوا نبي الله ﷺ بأعينهم، وسمعوا أقواله بآذانهم، وفهموها على النحو الذي يجب أن تفهم عليه، وليس أحدٌ يستطيع أن يفهم سنة النبي ﷺ أفضل مما فهمها الصحابة رضوان الله عليه، فإن أراد أحد أن يفوق فهمَهم فعليه أن يكون من أفراد عصرهم، وأن يتكلم بذات اللغة العربية الفصحى التي تكلموا بها، وأن ينال تزكية الله تعالى ورسوله كما نالوها هم رضي الله عنهم، وأنى له هذا! وهكذا مَن جاء بعدهم من السلف رحمهم الله كان فهمهم أقرب للصواب لقربهم من العهد النبوي وعهد الصحابة وقلة العجمة فيهم، ومن عجائب زماننا أن يأتي مَن لا يفهم معنى شطر قصيدة جاهلية دون استعانة بمعجم، فضلًا عن أن يتكلم باللغة العربية الفصيحة دون لحنٍ جلي أو خفي، ثم يدّعي بهذا الفهم المتواضع تعارضًا في سنة النبي ﷺ يستوجب به رد أحاديث صحيحة في صحيحي البخاري ومسلم!

لقد فهم الصحابة رضي الله عنهم أن الشؤم المذكور في هذا الحديث ليس على المعنى المذموم شرعًا، وإنما قصد به الضرر الواقع منه في بعض الأحيان دون بعض، ولذلك تجدهم يستخدمون هذه اللفظة في وصف بعض الأشياء الأخرى، ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إن كان الشؤم في شيءٍ فهو فيما بين

اللحيين – يعني اللسان –، وما شيء أحوج إلى سجنٍ طويلٍ من لسان»[1]. وقال معمر (ت ١٥٣هـ) أحد رواة حديث ابن عمر بعد روايته للحديث: «وسمعت مَن يفسر هذا الحديث يقول: شؤم المرأة إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس إذا لم يُغز عليه في سبيل الله، وشؤم الدار جار السوء»[2].

والناظر في طريقة إخراج الإمام البخاري لهذا الحديث في صحيحه يلمح إشارته لهذا المعنى، فقد أخرج هذا الحديث في كتاب النكاح، وعنون الباب بقوله: «باب ما يُتّقى من شؤم المرأة وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾» وبدأ بحديث ابن عمر بصيغتي الجزم والتعليق، وثناه بحديث سهل بن سعد بصيغة الجزم، ثم ختم الباب بحديث أسامة عن النبي ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»[3]، في إشارة منه رحمه الله إلى أن الشؤم المقصود في الحديث ما يكون ناتجًا عن سوء خلق المرأة حتى تكون عدوًا للرجل، وقوله: «يُتقى» إشارة إلى جواز مفارقة هذا النوع من الشؤم. بل قد نقل ابن الملقن عن البخاري قوله: «شؤم الفرس إذا كان حرونًا، وشؤم المرأة

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٠ / ٤١٢).
(٢) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٠ / ٤١١).
(٣) (٥٠٩٣) و (٥٠٩٤) و(٥٠٩٥) و(٥٠٩٦)، ص ١٠١٠.

سوء خلقها، وشؤم الدار جارها»[1].

ثم لو قلنا بهذا المعنى (أن الشؤم ما يقع في نفس الإنسان) –وقد ذكرنا سابقًا أن الشارع أباح مفارقة هذه الأمور- فهذا يعني أن الرجل يباح له طلاق امرأته لمجرد شعور قلبي ليس له أي أثر مادي، أفلا يكون في هذا ظلمًا للمرأة، وقد قال : «وكسرها طلاقها»[2] فكيف يسمح الشارع للرجل أن يُنزل ضررًا ماديًا متحققًا في حق المرأة، لمجرد شعور قلبي معنوي ليس لها فيه أي يد؟!

وأما ما استشكله البعض مما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رجلين قالا لها: إن أبا هريرة يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الطيرة في المرأة والدار والدابة» فغضبت غضبًا شديدًا، وطارت شُقَّةٌ منها في السماء، وشُقَّةٌ في الأرض[3]، فقالت: «إنما كان أهل الجاهلية يتطيّرون من ذلك»[4]، وجاء في رواية أخرى قسمها بأن النبي ﷺ لم يقله! إذ قالت: «والذي أنزل الفرقان على محمد ما قالها...»[5] فجوابه كالآتي:

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن (٢٤ / ٢٦٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٦٨).
(٣) قال ابن منظور:"هو مبالغة في الغضب والغيظ، يقال: قد انشق فلان من الغضب كأنه امتلأ باطنه به حتى انشق". لسان العرب (١٨٢/١٠) مادة (شقق).
(٤) أخرجه أحمد (٢٥١٦٨).
(٥) أخرجه أحمد (٢٦٠٣٤).

لنحل هذا الإشكال ينبغي أن نعرف الأحوال التي قيلت فيها هذه الأحاديث للصحابة، والأحوال التي نُقل فيها حديث أبي هريرة ﵁ إلى عائشة ﵂.

**أولاً**: يخبر النبي ﷺ عائشة ﵂ عن أحوال الجاهلية وتشاؤمهم بهذه الأمور الثلاثة.

**ثانيًا**: يخبر النبي ﷺ الصحابة غير عائشة ﵂: «أن الشؤم في ثلاثة: المرأة والدار والفَرس» من دون حكايةٍ عن أخبار الجاهلية، ويفهمون عنه أن المعنى من الشؤم هنا هو سوء الخلق والضرر، وليس المعنى المتبادر، وهو ما توافق عائشة الصحابة ﵃ فيه في الفهم عن النبي ﷺ هذا المعنى.

**ثالثًا**: ثم يسمع بعض الرواة من التابعين هذا الحديث من أبي هريرة ﵁ دون أن يستفسروا منه عن المعنى المراد، فيفهمونه على المعنى المخالف وهو إثبات الشؤم في هذه الأمور كما كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، فينقلون هذه الحديث بهذا السياق المخالف إلى أم المؤمنين عائشة ﵂.

**رابعًا**: وحينما تسمع ﵂ هذا الحديث بهذا المعنى الذي يخالف يقينًا ما تعلمه من أحوال النبي ﷺ وأفعاله وأقواله، تنكره أشد النكران، وتقسم بالله أن النبي ﷺ لم يقل هذا الحديث قط.

بهذا المعنى يكون موقفها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سليمًا، ويتبين سبب غضبها الشديد، فإنكارها كان متوجهًا للمعنى المُخالف المتبادر الذي كان يدور عند بعض الرواة في ذلك الزمن مما فهموه خطأً عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دون أن يستفسروا منه، ونقلوه إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالمعنى المخالف، وهي بارة بقسمها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لأنه يستحيل عليه أن يقول ﷺ بهذا المعنى الذي هو شرك محض كما بين بنفسه في الأحاديث الأخرى التي ذكرناها سابقًا في هذا البحث.

والذي يؤكد ذلك التوجيه؛ مجيء روايات يتبين فيها أن هذا المعنى المخالف كان منتشرًا عند بعض الرواة، إذ يأتون الصحابة يسألونهم عنه، فينهاهم الصحابة عن ذلك ومنها: ما روى الطبري عن ابن أبى مُلَيكة يقول: قلتُ لابن عباس: كيف ترى في جارية لي، في نفسي منها شيء؟ فإني سمعتُهم يقولون: قال نبيُّ الله ﷺ: «إن كان شيءٌ، ففي الرَّبْع والفرس والمرأة؟» قال: فأنكر أن يكون سمع ذلك عن النبي ﷺ أشد النكرة وقال: «إذا وقع في نفسك منها شيء، ففارِقْها، بِعْها، أو أعتقها»[1]. وعن سعيد ابن المسيب أنه قال: سألت سعد بن مالك عن الطيرة؛ فانتهرني فقال: مَن حدثك؟ فكرهتُ أن أحدثه. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لاعدوى ولا طيرة ولا هام، إن تكن الطيرة في شيء ففي الفرس،

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (مسند علي)، ص٢٧.

والمرأة والدار»[1].

والذي يهتدي إليه العاقل من مناقشة هذا الحديث؛ أن ليس فيه انتقاصًا للمرأة، إذ كيف ينتقص النبي ﷺ من المرأة ثم يُثَمِّن دورها في أحاديث أخرى كثيرة؟ هذا لا يمكن بحال، والشريعة منزهة عن التناقض.

- إذًا ما المعنى المراد؟

=كل ما في الأمر أن المرأة ليست شؤمًا لأنها امرأة، بل تكون شؤمًا مُضرًّا إن كانت سيئة الخلق، وتكون أيضًا أروع ما في هذه الدنيا إن كانت صالحة، حسنة الخلق، وكفاها فخرًا أن يكون أول مَن وصفها بهذا اللقب الفخري هو رسول الله ﷺ حينما قال ذاتَ إسداءِ مَنْقَبَة: «وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»!

* * *

(١) أخرجه أحمد ( ١٥٥٤).

## مخرج...

مَن لم يكن في كنانته إلا قنبلة:

فسيحاول أن يصطاد بها حتى العصافير !